بحث محكم | قسم الدين وقضايا المجتمع الراهنة | 02 أغسطس 2016

داعـش:
قداسة العنف وأسلمة الإرهاب

عمّار بنحمّودة
باحث تونسي

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2016
All rights reserved © 2016

الملخص:

ظل تنظيم الدولة الإسلامية (داعش) كابوسًا يؤرّق الباحثين، إذ هو تنظيم لا يزال في مرحلة التشكّل، وحقيقته متغيّرة كلّ يوم، تتحوّل بعض المواقف الدوليّة منه من نصير خفيّ إلى عدوّ يقصفه بالطائرات، ويمتدّ نفوذه من مجرّد تنظيم محدود العدد والعتاد إلى تنظيم يعلن دولة طالما كانت حلمًا للحركات المؤمنة بأنّ الإسلام هو الحلّ.

لقد صار داعش مجمع ألغاز ملأت الدنيا وشغلت الرأي العام العالمي بأخبار القتل والسبي والغنيمة، ولقد اتّجهت بعض المقاربات إلى اتهام الإعلام بكونه يضخّم الإرهاب ويحوّله إلى غول جديد ليشوّه الإسلام وينشر حالة من الخوف اصطلح عليها «الإسلاموفوبيا»، إلاّ أنّ ولادة الدولة الإسلامية على مساحة جغرافية واسعة قد جعلت الوهم يتحول إلى حقيقة وصيّرت التنظيم الذي كان يتحصّن عناصره بالجبال والمناطق القصيّة يتحوّل إلى دولة لها زعيمها وهي قادرة على تهديد دول أخرى واحتلال أراضيها، بل إنّ نفوذ هذا التنظيم قد امتد خارج حدود العالم العربي الإسلامي لينفّذ هجمات في قلب العاصمة الباريسية على بعد أمتار قليلة من الرئيس الفرنسي «فرانسوا هولاند».

وعلى الرغم من أهميّة التنظيم فإنّ بعضهم يعدّه صناعة إعلاميّة لها عمر محدود وهو ناشئ من تشابك مصالح سياسيّة تنتهي تدريجيًا بنهاية الأهداف الاستراتيجية التي رسمتها الدول العظمى في منطقة الشرق الأوسط، فهو تنظيم مدعوم من الغرب ذاته من أجل تحقيق أهداف فوضى خلاّقة وإعادة رسم خارطة دول الشرق الأوسط بما يضمن طبعًا مصلحة إسرائيل الكبرى، ويحقّق مصالح الولايات المتحدة الأمريكية التي تطمح إلى السيطرة على ثروات المنطقة. ونتيجة ذلك فإنّ كثيرًا من الباحثين يتفادون الخوض في هذا الحديث خشية التسرّع في الأحكام أو الوقوع تحت تأثير توجيه إعلامي يستبعد القضايا الخطيرة من ساحة الوعي الإنساني ويحملنا كرهًا على الاهتمام بقضايا شاءت المصالح العالمية أن تتقدم جداول أعمال الساسة والإعلاميين. ولذلك فالبحث في داعش وأخواتها لا يخلو من محاذير الوهم والتضخيم، إلاّ أن ذلك لا يغنينا عن فهم الظاهرة ودراسة جذورها طمعًا في إدراك شيء من حقيقتها، وذلك بالبحث عن الأسباب البعيدة والقريبة لنشأة هذا التنظيم ومحاولة استطلاع آفاقه.

مقدّمة:

لم تعد في العالم رقعة من الأرض يمكن أن تنجو من الإرهاب، فقد ضرب في عقر دار الولايات المتحدة الأمريكيّة يوم 11 سبتمبر، ولا يزال يضرب في عمق العاصمة الباريسيّة في مسارحها وقرب ملاعبها وفي مطاعمها، لا مكان يمكن أن يكون آمنًا يوم يفتك الإرهاب بأعدائه ورعاته، فلقد عشّش في بعض الدول فصيّرها أثرًا بعد عين، وفي كلّ رقاع العالم تحوّل الإرهاب إلى مفهوم يستعصي على الفهم، وعنف يأبى الضبط، ولكن وراء كلّ عمليّة تحمل عنوان الإرهاب يقف الخطاب الدينيّ المقدّس ليبرّر الموت ويضفي القداسة على القتل، وهو ما يطرح منذ البداية إشكالاً في فهم حقيقة الإرهاب: فهو في نظر أصحابه جهاد مقدّس يخوضه المسلم ضدّ الكفّار، وله في الجراح الإسلاميّة حجج كافية للتبرير وفق منطق العين بالعين والسنّ بالسنّ وطمس التّسامح سبيلاً للوفاق مع الغرب، وكثيرًا ما يبرّر خطاب «الإرهابيّين» بالعنف المحاكي وبالمرجعيّة القرآنيّة والنبويّة كي يمنح أعماله الشرعيّة. ولو لم يكن ذاك الخطاب مقنعًا لفريق من المؤمنين به، لما استطاع أن يجنّد شبابًا مندفعين وراء الموت الجماعيّ وهم يحسبون أنّهم يحسنون صنعًا، وليست ظاهرة الإرهاب بسيطة حتّى تختزل في زاوية واحدة أساسها دينيّ أو سياسيّ أو اقتصاديّ أو اجتماعيّ أو حضاريّ ثقافيّ، فكلّ تلك العوامل يمكن أن تتدخّل في صناعة الإرهاب وتبريره، ولكن حاجتنا تتجدّد دومًا إلى إعادة قراءته ومساءلته مادام قائمًا في مجتمعاتنا يتفاقم خطره على حياتنا وعلى جيل من شبابنا الباحث عن النعيم بقتل الآخرين، فهو يهدّد أمننا وسلمنا ويستنزف جهد الإنسانيّة نحو تحقيق حلمها بالتسامح وانتشار التعايش بين جميع الألوان والأجناس، وهو يعيد كابوس الموت إلى العالم بعد أن كاد ينسى أعظم حرب في تاريخيه، وبعد أن انتهت الحرب الباردة التي ظلّت تثير الرعب في الأنفس وإن لم تندلع بين الأمريكيين والسوفيات.

لقد صار الإرهاب صندوقًا أسود من الألغاز المحيّرة:

اللغز الأوّل: يتمثّل في كونه صار شبيهًا بالغول أو الجنّ، لا ينشأ إلاّ في الأماكن الخفيّة، بل إنّه صار أقرب إلى الميتافيزيقا، فكائناته المندفعة وراء الموت تتخفّى وراء الشبكات العنكبوتيّة، وتحوك مؤامراتها في جميع أركان العالم، وتظهر فجأة ثمّ تختفي بالسّرعة نفسها التي ظهرت بها، وأفعالها في كثير من الأحيان خارقة، إذ هي تتحدّى إرادة الدّول العظمى وحصونها الأمنيّة ولا تعبأ بأقوى الجيوش في العالم، وذاك أمر صيّر الإرهاب في تصوّر كثير من النّاس كبضائع العولمة شرًا خارقًا للدّول عابرًا للقارات.[1]

اللغز الثاني: يرتبط بالقدرة السّحريّة التي يمتلكها شيوخ الإفتاء المقدّس على سلب كثير من الشباب ثقتهم في الحياة ومنحهم تأشيرة العبور إلى الفردوس الأعلى بحزام ناسف أو سيّارة مفخّخة أو برشاش يزهق

1 شبّه طلال عتريسي نقلاً عن مركز الدراسات الأمريكية والعربيّة تنظيم الدولة الإسلامية في العراق والشام بالسرطان الذي يستشري في الجسم. انظر: طلال عتريسي، دولة داعش وفشل استعادة الإسلام السنيّ، مجلّة شؤون عربيّة، العدد 159، خريف 2014، ص 21

الأرواح ببرودة دم منقطعة النظير ويقين بالخير العميم، وهي آليّة ديماغوجيا فعّالة تحتاج إلى الوقوف عند استراتيجيّاتها ومصادر قوّتها.

اللغز الثّالث: يكمن في فاعليّة هذه الجماعات التي تطّورت من طور التنظيمات السرّية المتخفّية في الجبال والغابات إلى طور الإعلان عن كيانها السياسيّ دولاً تمتدّ على أنقاض دول متهالكة، شرّدها الاستعمار الجديد المتدثّر بعباءة الحرّية واستنزف طاقاتها الوطنيّة، ونقصد طبعًا تنظيم الدولة الإسلاميّة في العراق والشام، فهل تغافل شرطيّ العالم عن هذه المنظومات الخارقة للشرعيّة الدوليّة أم تراه يجد مصلحة في ظهورها وانتشارها؟ وهل يقف وراء نشأتها دعمًا بالسلاح والفوضى الخلّاقة كما يسميّها منظّروها؟ وهل من مصلحته فعلاً انتشار مثل هذه التنظيمات العابرة للحدود والتي كشفت التجارب القريبة سرعة تحوّلها من حليف إلى عدوّ لدود؟

اللغز الرّابع: في علاقة تلك التنظيمات التي ارتقت في تقديرها إلى طور الدول بالمنظومة العالميّة، فهل نتصوّر مصيرًا يعترف به العالم كلّه بها كيانًا سياسيًا يخوض حربًا ضدّ الجميع؟[2] وكيف يتصوّر واضعو نظريّات هذه التنظيمات مصيرهم السياسيّ؟[3] هل يحلمون بأسلمة العالم؟ أم تراهم مجاهدين سائرين في طريق الموت المقدّس ونيل الجنان مقابل الخراب الذي ينشرونه في الحياة الدنيا؟

ليس الإرهاب سوى مزيج بين شيخ يشرعن العنف المقدّس، ومتطوّع يضحّي بنفسه قربانًا للمقدّس، وجهاز تحكّم سياسيّ واقتصاديّ يضمن وصول السلاح إلى الحالمين به ويعدّ الأحزمة الناسفة للطامعين في اتخاذها مفتاحًا للجنان، وبوابة للفردوس الأعلى. وآلة إعلاميّة تتولّى بعد ذلك تسويق الإرهاب وإظهاره غولاً يهدّد الجميع، ووحشًا غامضًا يتوارى عن الأنظار ويغالط كبير المحقّقين.

لقد صار من أغرب الأشياء أن تلقى الحرب على الإرهاب في الظّاهر إجماعًا دوليًا منقطع النظير، ومع ذلك يظلّ الإرهاب قائمًا في العالم، بل إنّه يشهد تطوّرًا في أساليبه وعمليّاته، وصارت كثير من أعماله توثّق بدرجات عالية من الجودة والحرفيّة في الصورة والإخراج تذكّر بأفلام هوليود وبراعة الفنّنين فيها في إخراج أفلام الرعب والإجرام.

وبالمقابل يذهب الباحثون في تفسيرهم للظاهرة مذاهب شتّى قد يزيد بعضها من ضبابيّة فهم الإرهاب، فلئن عدّه بعضهم نتيجة طبيعيّة للاستهتار الغربيّ بالدماء الإسلاميّة وإجحافه في العبث بالأوطان خارقًا كلّ

2 إنّ "داعش وخلافتها المزعومة تواجه اعتراضًا سنيًا مثلما تواجه اعتراضًا شيعيًا، وهي تواجه في الوقت نفسه رفضًا من الدول الأخرى القومية والوطنية، وهي متهمة بالإرهاب من الدول الغربيّة." المرجع نفسه، ص ص 27، 28

3 "الدولة لا تعرّف إلاّ بوجود الدول الأخرى، وعلى أساس اعتراف تلك الدول بكلّ عضو منها ككيان ذي سيادة، فعالمنا لا يتكوّن من دول فحسب، بل هو أيضًا مكان ليس فيه مسافات غير سياسيّة بين تلك الدول. وشخص بلا دولة هو شخص غير مرغوب فيه. هكذا كي يستطيع الحكم الإسلاميّ أن يجعل نفسه كيانًا معترفًا به سياسيًا، يجب أن يعترف به كمشارك في مجتمع الدول القوميّة، مهما تكن رؤيته إلى العالم مختلفة عن تلك الدول." وائل حلاق، الدولة المستحيلة، الإسلام والسياسة ومأزق الحداثة الأخلاقي، (ترجمة عمرو عثمان)، ط1، قطر، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2014، ص 251

المواثيق والأعراف الدوليّة، فإنّ بعضهم الآخر يعدّه صناعة أمريكيّة غايتها تشويه الإسلام وإظهاره دينًا فاشيًا عنيفًا، وإغراق الدول العربيّة في الفوضى حفاظًا على أمن إسرائيل واستقرارها.

ومهما تكن الحقيقة التي يصعب إثباتها يقينًا فإنّ الذين ينفّذون الهجمات الانتحاريّة هم من شباب المسلمين، وكثيرًا ما تعلو هتافات التكبير أثناء قيامهم بتلك العمليّات. وهو ما لا يدع شكًّا عند المتلقّي في انتماء المنفّذين إلى جماعات إسلاميّة متشدّدة، وترد التسجيلات الصوّتية بعد العمليّات الإرهابيّة لتؤكّد نسبتها إلى جماعات المسلمين، وإنّه ليس أدلّ من ارتباط عقيدة الموت بفكرة الجهاد التي تعدّ فكرة إسلاميّة أصيلة يمكن أن نجد لها شرعيّتها في الكاتب والسنّة، وليس أيسر على شيوخ الإفتاء الدمويّ من أن يجدوا حججًا على دعواتهم ويقينًا بأنّهم على حقّ لا ريب فيه، فكيف هزم شيوخ الإفتاء المتعصّبون نظراءهم المتسامحين؟

1- داعش: هزيمة التّسامح في مواجهة العنف المقدّس:

يبدو من الحتميّ اليوم عدم تجاهل روافد العنف المقدّس في التّاريخ الإسلاميّ، وهو عنف مركّب يحتاج إلى التفكيك من أجل فهم طبيعته وسبل تكوّنه.

فلا أحد يستطيع إنكار الطابع الدمويّ للدّعوة الإسلاميّة في مواجهتها كلّ المعارضين، وإنّه لمن اليسير العثور على تبريرات للعنف المقدّس في الكتاب والسنّة يمكن للجماعات الإسلاميّة التي تتبنّى خطاب العنف اللجوء إليها واتخاذها سقفًا لشرعيّتها، فجذر (ق، ت، ل) ورد في القرآن خمسًا وستين ومائة مرّة، والأحاديث النبويّة بدورها تحثّ في مواطن كثيرة على الجهاد باستعمال السيف، وقد تأثّر الفقهاء بدورهم بنزوع الخطاب القرآني والحديث النبويّ إلى العنف وبرياح الغلبة التي وسمت واقع المسلمين وأثّرت في آراء الفقهاء والمتكلّمين، فكانت الدعوة إلى القتال واستعمال السيف من الثوابت التي قام عليها الفكر الفقهي، وإنّه وإن وجدت آيات تحثّ على التسامح وأحاديث تستبعد خيار العنف في التعامل مع المختلفين دينًا وعقيدةً، فإنّ الباحث عن مقارعة الحجّة بالحجّة في الخطاب الدّيني ليجد أنّ التأويل الذي يبرّر العنف بالنصّ القرآنيّ والأحاديث النبويّة أقرب إلى تبرير العنف من التسامح، على العكس من ذلك نجد أنّ التسامح في الفكر المسيحي له مبرّراته القويّة في سيرة السيّد المسيح الذي لم يتّخذ من العنف سبيلاً لنشر رسالته، واتّخذ من الدّعوة بالتي هي أحسن منهجًا فعليًّا لكسب أنصاره، فأين سنرمي بإرث مثقل بالغزوات، يمتدّ على صفحات طويلة من السيرة النبويّة؟ وكيف لنا بإقناع القابعين في التّاريخ المتخيّل يتمثّلون به جهادهم ضدّ الكفّار بأنّ النبيّ كان متسامحًا؟ ألم تكن الغزوات طعنًا بالسيوف وقطعًا للرؤوس وسبيًا للنساء، وجمعًا للمغانم، وسعيًا إلى التوسّع على حساب الآخرين؟ وأيّ تأويل يمكن أن يواري كلّ تلك الحروب؟ وأين يمكن أن نجد تأويلاً للتسامح في ظلّ حروب الردّة التي وقف فيها المسلمون ضدّ من خالفوا إرادتهم من القبائل الأخرى، فكان القتل بكلّ الأشكال المتاحة بما في ذلك الرضخ على الحجارة؟ وأين سنجد منظومة تشريعيّة تستبعد خيار الرجم وقطع الأيدي؟ وهل ستكون حجّة استغناء بعض الصّحابة عن بعض الأحكام التشريعيّة كإيقاف

عمر بن الخطاب عقوبة قطع اليد حجّة أمام من يرون في الأحكام التشريعيّة، المنزلّة وحيًا، أقدس المراجع ليستمدّوا القوانين والتشريعات منها؟

إنّ المؤوّلين يخوضون بالتسامح حربًا خاسرة ينهزم فيها صوت العقل أمام قوّة أسلحة العنف المقدّس. وتضعف فيها حججهم في وجه المتشبّثين بالشريعة الإسلاميّة قانونًا إنسانيًا، وبالإسلام وفق فهمهم حلاً لمشاكل الإنسانيّة. ولهذا اعتبر أركون الحوار مع من يتبنّون هذا الفكر شاقًا ومضنيًا.

وليس النقاش مع من يضعون أنفسهم موقع الوسطيّة بأيسر من النقاش مع المتشدّدين، فثمّة خيط رابط بين المنظومتين، يكاد لا يخلو منه خطاب إسلاميّ، وهو الاعتقاد الرّاسخ بوصاية عالم الدّين على الدّنيا وتقمّصه دور المجاهد في سبيل الله، فيوسف القرضاوي مثلاً يقسّم مواقف المسلمين من الجهاد إلى ثلاثة أنواع، فأمّا النوع الأوّل فذاك الذي تمثّله فئة تريد إماتة الجهاد وتعتقد أنّ الجهاد يجب أن يقف عند عتبات جهاد النفس والشيطان، بمعنى أنّها تجعل من الجهاد شأنًا ذاتيًا يمارسه الإنسان في إطار فرديّته، ويتبنّى هذا الموقف حسب رأيه المؤمنون بالتصوّف السلبيّ الموروث من عهود التراجع والتخلّف، ودعاة العلمانيّة الدّخيلة، المتغربون، وعملاء الاستعمار الغربي والشرقيّ من اليمين واليسار، الذين يريدون أن يجرّدوا الأمّة من أسلحتها.[4]

أمّا الفريق الثّاني ففئة تعلن الحرب على العالم كلّه، برفضها كلّ الاتفاقيّات وحملها السلاح على قومها وأهاليها حتّى ألصقت بالإسلام تهمة العنف بقتلها السيّاح وركّاب الطائرات والرهائن وأمثالهم، لترهب غيرها بقتلهم أو اختطافهم واحتجازهم، وبذلك ألصقت بالإسلام تهمة أخرى إلى جانب تهمة العنف وهي تهمة الإرهاب.[5] أمّا فئة التوسّط والاعتدال، فقد أثنى عليها القرضاوي واعتبرها الفئة التي هداها الله إلى الموقف الوسط، ورزقها البصيرة في فقه الشرع وفقه الواقع، وهي التي تؤمن بالجهاد الإلكتروني والدعوة باستعمال وسائل الاتّصال الحديثة وهي في نظره أسلحة قويّة ومؤثّرة في جهاد العصر، وهي تحتاج إلى جيوش جرّارة من الدعاة والمعلّمين والإعلاميين المدرّبين الأكفّاء الأقوياء الأمناء المقتدرين على مخاطبة العالم وأممه بلغاته المختلفة، وبلسان عصره، ليبيّنوا لهم ويفهموهم ويؤثّروا في عقولهم وعواطفهم.[6]

إنّ خطاب الوسطيّة الذي لا يمكن أن يدّعي احتكار التأويل الإسلامي الصحيح في زمن الاختلاف والتنوّع يظلّ بدوره خطابًا مسكونًا بهاجس تغيير عقائد النّاس وهداية الضّالين منهم (ولا يستثني اليهود والمسيحيين) إلى دين الحقّ وصراطه المستقيم، وفي رسم ذلك الهدف وهم استعلاء متمكّن من كلّ المتعصّبين، وعنف رمزيّ ينصّب فيه المسلم نفسه وصيًّا على أفهام الناس في خطاب لا يزال يحمل بذور العنف الموروث من

4 انظر: يوسف القرضاوي، فقه الجهاد، دراسة مقارنة لأحكامه وفلسفته في ضوء القرآن والسنّة، ط1، القاهرة، مكتبة وهبة، 2014، ج1، ص 25

5 انظر: المرجع نفسه، ج 1، ص 27

6 المرجع نفسه، ج1، ص ص 27، 28

السّلف، فالدّعوة جهاد، والإعلام حرب غايتها هزيمة الكفر وهداية الضّالين. ولكن هل يوسف القرضاوي وفريق الوسطيّة والاعتدال قادر على الاضطلاع بهذا الدّور؟ وهل هو مؤهّل ليُفهِم النّاس حقيقة الوجود ويوجّه وعيهم أم إنّه أحوج إلى الفهم والتوجيه منهم؟ وهل صار البشر في العالمين الإسلاميّ والغربيّ في حاجة إلى أمثال «القرضاوي» ممّن يتصوّرون أنفسهم يحتكرون العلم الأسمى والأنفع[7] كي يعلموهم أصول الدّين والسلوك القويم وقواعد العبادات وتعاليم الإسلام؟ بل من قال إنّ الآخر في حاجة إلى من يلقّنه دروسًا في الأخلاق والدّين؟ هل يمكن لشيخ الإسلام أن يحدّد مصير العالم ويحدّد مسارات البشر اعتقادًا وسلوكًا؟ أليست مجتمعاتنا أحوج إلى إعادة النظر في واقعها من أجل النّهوض بمستويات مواطنيها الفكريّة وبوضعيّتهم الاقتصاديّة والاجتماعيّة؟ أليس جديرًا بهذا الفريق الذي يسخّر نفسه للجهاد بالوسائل العصريّة من أجل نشر ما يعتقد هو في صحّته أن يكون شريكًا فعليًا للإنسانيّة في إنجازاتها العلميّة ومساراتها العقلانيّة؟ ألم يتعلّم المسلمون بعد من دينهم أنّ الإنسان لا يستطيع أن يهدي من أحبّ ولكنّ الله يهدي من يشاء[8]؟ وما الذي يمنحه اليقين بأنّه من المهتدين؟ ألم يعلم بعد بأنّ الله لو شاء لآمن الناس جميعًا[9]؟ وأنّ من حكمته الاختلاف. وكيف يمكن أن نضمن أن لا تتحول حملات الشحن الإيديولوجي على شبكات الأنترنات إلى عنف وإرهاب؟ ألم تستغل التنظيمات الجهادية تلك الوسائل لاستقطاب الشباب وتجنيدهم؟

إنّ خطورة التفكير في تغيير عقائد النّاس تكمن في أنّ ذلك يفرض نوعًا من العنف لا ريب فيه، يحتكر فيه الإنسان الفهم والتأويل وتصوّر العالم، ويمنح الإنسان ضربًا من الاستعلاء يرقى إلى مستوى الغرور في اعتقاده أنّه المؤمن وأنّ الباقين على ضلال، ويفضي إلى أوهام قد لا تقف عند حدود الهيمنة الفكريّة بل إنّها يمكن أن تتحوّل بسهولة إلى أشكال جديدة من الهيمنة السلطويّة. وتكمن خطورتها أيضًا في كونها تعمي الذات عن نقد ذاتها، ذلك أنّ اعتقاد المسلمين بأنّهم أصحاب الحقّ المطلق وأنّهم خير أمّة أخرجت للناس، قد خلق ضربًا من الغرور منع الذات المسلمة من مساءلة تاريخها ومراجعة أخطائها، ونقد تصوّراتها فأفضى ذلك إلى مسارات دغمائيّة واعتقادات أورثودكسيّة صمّاء. فهل يمكن بعدئذ أن نعتبر أنّ الوسطيّة تعدّ انتصارًا للتسامح على التعصّب، ونسخًا للعنف بالسلم؟

2- أصول العنف: التراث المحكيّ والداعشيّ الصدى:

تعدّدت أشكال العنف التي اعتمدتها التنظيمات الجهاديّة، وبدت الصوّر التي بثّها أعوانهم المجاهدون على شبكة الإنترنيت، صادمة للمتلقّي لما احتوته من تنوّع أشكال العنف الذي كان جزءًا من استراتيجيّة

7 نعلم جيّدًا أنّ القرضاوي هو رئيس هيئة علماء المسلمين، ولذلك فخطابه يتّخذ وظيفة سلطويّة، ولكن هل يصحّ إطلاق صفة عالم على من اقتصرت معارفه على المجال الدّيني، وهل توقف العلم عند الحدود الإسلاميّة؟ وإلى أيّ حدّ تعتبر هذه الهيئة شرعيّة؟ ألا يمكن أن تكون خادمة لمصالح سياسيّة واقتصاديّة محدّدة؟ ومن ذا الذي يضمن حيادها وهي التي عرفت بولائها إلى فريق من المتنازعين على الشرعيّة السياسيّة في الوطن العربيّ؟

8 ورد في القرآن قوله تعالى: "إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ." القصص 56

9 جاء في القرآن قوله تعالى: "وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ." سورة يونس، الآية 99

تستمدّ أصولها من تأويل للتراث يقرب من الفهم الظّاهري لحقيقته، تمثّل في اعتماد أساليب التوحّش التي حوّلت التسجيلات التي يبثّها تنظيم داعش إلى أفلام رعب، يسعى من خلالها إلى احتلال موقع الغول في المتخيّل العالمي، ليرهب أعداءه ويثبّت أقدامه في كلّ أرض يدخلها، ولقد حرص التنظيم على أن تكون الإعدامات التي يقوم بها على الملأ في مدينة الرقّة وفي سائر المناطق التي دخلها من أجل أن يضمن ولاءً قائمًا على الخوف، ثمّ توسّعت دوائر الخوف من الرسائل المباشرة التي يبثّها التنظيم لمن يحضرون عمليّات الإعدام، إلى نشر مشاهد لقطع الرؤوس[10] جعلت من الذاكرة الإنسانيّة المفتونة بالصّورة تنسى كلّ أشكال العنف التي قامت في التاريخ الإنسانيّ وترى في هذا الشكل الذي ضخّمته الصوّرة وحوّله المتخيّل السينمائيّ إلى صناعة للموت، الصّورة الأبشع للقتل.

لقد كانت أشكال العنف التي اعتمدها تنظيم الدولة الإسلاميّة (داعش) سائدةً قديمًا، سواء أكان ذلك عند المسلمين أم عند غيرهم، ولكنّ قداسة تلك الأشكال نابعة من اعتقاد المؤمنين بالجهاد إزهاقًا للأرواح وقتلاً للمختلفين وأنّ أفعالهم مقدّسة، لأنّهم يقاتلون بعقيدة السّماء فريقًا من المقاتلين بعقيدة الأرض.[11]

لقد ظلّ ابن تيميّة مرجعًا مقدّسًا يحتكم إليه كثير من أتباع الجماعات الإسلاميّة المؤمنة بخيار العنف، وهو يفتي أنّ «العقوبات التي جاءت بها الشّريعة لمن عصى الله نوعان: أحدهما: عقوبة المقدور عليه، من الواحد والعدد... والثاني: عقاب الطّائفة الممتنعة، كالتي لا يقدر عليها إلاّ بقتال. فأصل هذا هو جهاد الكفّار، أعداء الله ورسوله، فكلّ من بلغته دعوة رسول الله ﷺ إلى دين الله الذي بعثه به فلم يستجب له، فإنّه يجب قتاله «حتّى لا تكون فتنة ويكون الدّين كلّه لله.»(الأنفال: 39)»[12] وهو يدعم موقفه بآيات قرآنيّة يرى في تأويله لنصوصها دعوة صريحة إلى الجهاد بمعنى القتال وخوض الحرب في سبيل الدفاع عن

10 يعتمد أبو براء النجدي وهو أحد أعلام الفكر الجهادي أدلة من القرآن على مشروعيّة نحر الكفّار، وهو قوله تعالى: "فَإِذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّى إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ." محمد/ الآية 4، وينقل تفسير القرطبي: لم يقل فاقتلوهم لأنّ في العبارة بضرب الرقاب من الغلظة والشدّة ما ليس في لفظ القتل، لما فيه من تصوير القتل بأبشع صورة، وهو حزّ العنق وإطارة العضو الذي هو رأس البدن وعلوه وأوجه أعضائه)... ثمّ يعلق بقوله: "وهذه الآية صريحة الدلالة في جواز نحر الكفّار قبل أو بعد أسرهم وهذا ما فهمه العلماء من هذه الآية. فليت شعري بماذا يضرب عنق الكفار؟ هل بالسيف والسكين والرمح أم بالحرير والقماش؟ هل الواجب علينا الغلظة والشدّة مع الكفّار والمحاربين أم الرفق والرحمة." انظر: حسن محسن رمضان، تشريح الفكر السلفي المتطرف، ط1، سوريا، دار الحصاد، 2009، ص ص 592، 593

11 يقول أبو مشتاق الزبيدي القائد العسكري لجماعة الجيش الإسلاميّ في العراق: "إنّما نحن قد عبّئنا قبل أن تأتي أمريكا وقبل أن تأتي بريطانيا (إلى العراق)، وقد عبّئ ذلك من خلال حفظنا للقرآن، ومن خلال فهمنا لسنّة النبيّ عليه الصّلاة والسّلام، ومن خلال ما أردنا من هذه العبادة: أن ندخل الجنّة. فنحن علمنا أنّ هذه الجيوش عندما تقاتل بعقيدة الأرض تختلف عن الجيش الذي يقاتل بعقيدة السّماء." يسري فوده، في طريق الأذى من معاقل القاعدة إلى حواضن داعش، ط1، مصر، دار الشروق، 2015، ص 165

12 ابن تيميّة، مجموعة الفتاوى، ط1، الإسكندريّة، دار الوفاء، 1995، ج28، ص 193

الإسلام وقتل رجال المشركين[13]، وهو يذهب أبعد في تشريع الجهاد ضدّ من ينطقون بالشهادة إن خالفوا العقيدة الرسميّة لقوله: «فيثبت بالكتاب والسنّة وإجماع الأمّة، أنّه يقاتل من خرج عن شريعة الإسلام وإن تكلّم بالشهادتين.»[14]

ولكن هل يجب أن نحمّل ابن تيميّة وحده وزر الإفتاء بقتل من ينطق الشهادتين بدعوى مروق الفئة الباغية عن الإسلام كما يمرق السهم من الرميّة؟ أم تمتدّ جذور الإفتاء بالجهاد إلى الحقبة الأولى من الإسلام؟ ألم يجاهد النبيّ بسيفه؟ وهل يفتي ابن تيميّة بغير ما وجد من أقوال «السلف الصّالح» مثلما يعتقد واقتداءً بمن وثق في رواياتهم وأعمالهم فمنحها صفة القداسة وأطلق عليها لقب الشريعة الإسلاميّة؟[15]

---

13 الآيات التي يحتجّ بها ابن تيميّة ليفتي بوجوب الجهاد هي الآتية:

"أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ. الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ. الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ." الحج (39- 41).

"كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ." البقرة (216)

«قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ.» التوبة (24).

«إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ.» الحجرات (15).

«وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَى لَهُمْ. طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ. فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ.» محمّد (20-22).

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ. تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ. يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ. وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ.» الصف (10- 13).

«أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ. الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ. يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ. خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ.» التوبة (19- 22).

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ.» المائدة (54).

«مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ. وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ.» التوبة (120، 121).

«وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ.» البقرة (190).

«والفتنة أكبر من القتل.» البقرة (217).

14 ابن تيميّة، المصدر المذكور، ج 28، ص 197

15 يقول مايكل أنجلو ياكوبتشي: "القرآن في الحقيقة في حدّ ذاته لا يكفي لتبديد الشكوك، لأنّه يحوي إشارات عديدة للقتال باسم الله، يمكن للبعض أن يفسّرها بمعنى مجازيّ، بينما آخرون يفهمونها باعتبارها دعوة إلى حرب حقيقيّة للدفاع عن العقيدة... ولا تنس أنّ محمّدًا كان واحدًا من الأنبياء المسلّحين القلائل في التّاريخ، كان زاهدًا متنسّكًا، نعم، ولكنّه كان أيضًا رجل سياسة، وقائدًا عسكريًا، لم يتردّد في تحقيق طموحاته بالقوّة من خلال شنّ الغارات، والقيام بالغزوات ضدّ خصومه." أعداء الحوار، أسباب اللاتسامح ومظاهره، (ترجمة عبد الفتاح حسن)، ط1، مصر، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، 2010، ص 309

إنّ النّاظر إلى الفترة النبويّة ليلاحظ أنّ كتب السّيرة تعجّ بالغزوات والحرب وأخبار القتل وقطع الرؤوس والغنائم والسّبي والسّلب، بل إنّها لا تكتفي بتلك الممارسات وإنّما ترتقي بها إلى مرتبة القداسة، مادامت السيرة النبويّة درسًا تعليميًّا للراغبين في الإيمان برسالة الإسلام وتعاليمه.

ألا نجد في غزوة تبوك تشهيرًا بمن تخلّفوا عن الحرب، وآيات نزلت فيمن لم يخرج مع النبيّ مقاتلاً.[16] وقد أثنى النبيّ على الشهداء بقوله: «إنّ الشهداء ليأتون يوم القيامة بأسيافهم على عواتقهم، لا يمرّون بأحد من الأنبياء إلاّ تنحّى عنهم، حتّى إنّهم ليمرّون بإبراهيم الخليل خليل الرحمان فيتنحّى لهم حتّى يجلسوا على منابر من نور. يقول الناس: هؤلاء الذين أهرقوا دماءهم لربّ العالمين، فيكون كذلك حتّى يقضي الله عزّ وجلّ بين عباده.»[17] بل إنّ أمر الجهاد ليبدو في بعض الروايات إلهيًّا على لسان جبريل، ففي غزوة بني قريظة جاء الأمر السّماوي بحسب الرواية الشّائعة بالمسير إلى بني قريظة وقتالهم.[18] وفي هذه الغزوة نفّذ أمر سعد وأمر النبيّ وأمر السماء بقتلهم إذ يذكر ابن الأثير قول سعد: «فإنّي أحكم أن تقتل المقاتلة وتسبى الذرّية والنساء وتقسم الأموال، فقال له رسول الله ﷺ: لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبعة أرقعة، ثمّ استنزلوا فحبسوا في دار بنت الحارث امرأة من بني النجّار. ثمّ خرج رسول الله ﷺ إلى سوق المدينة، فخندق بها خنادق ثمّ بعث إليهم فضرب أعناقهم فيها.»[19]

فما الذي يمنع المتشبّثين بالسنّة النبويّة اليوم أن لا يحكموا بقطع الرؤوس وإهراق الدماء مادامت تلك الممارسة قائمة مبرّرة بأنّها حكم الله؟

لقد حوت كتب الفقه مرجعيّة العنف الدّيني المقدّس، فحكم من ارتدّ عن دينه في المذهب الحنبليّ مثلاً كما في سائر المذاهب، القتل «والردّة تحصل بجحد الشهادتين، أو إحداهما، أو سبّ الله تعالى، أو رسوله ﷺ أو قذف أمّ النبيّ ﷺ، أو جحد كتاب الله تعالى، أو شيء منه، أو شيء من أنبيائه، أو كتاب من كتبه، أو فريضة ظاهرة مجمع عليها، كالعبادات الخمس، أو استحلال محرّم مشهور أجمع عليه، كالخمر، والخنزير، والميتة، والدم، والزنا ونحوه. فإن كان ذلك لجهل منه، لحداثة عهده بالإسلام، أو لإفاقة من جنون أو نحوه، لم يكفّر، وعرّف حكمه ودليله. فإن أصرّ عليه كفر، لأنّ لأدلّة هذه الأمور ظاهرة في كتاب الله وسنّة رسوله، فلا يصدر إنكارها إلاّ من مكذّب لكتاب الله، وسنّة رسوله... ومن ارتدّ عن الإسلام وجب قتله، لما روى ابن عبّاس أنّ رسول الله ﷺ قال: «من بدّل دينه فاقتلوه.» رواه البخاري. وعن عثمان رضي الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا يحلّ دم امرئ مسلم إلاّ بإحدى ثلاث: رجل كفر بعد إسلامه، أو زنى

16 وردت في القرآن آيات تشهّر بالقاعدين، منها ما تعلّق مثلاً بغزوة بدر: «فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ.» التوبة (81).

17 الواقدي، المغازي، ج3، ط1، بيروت، عالم الكتب، 1984، ص 1020

18 انظر: ابن الأثير، الكامل، ط1، بيروت، دار إحياء التراث العربي، 1989، ج1، ص 573

19 المصدر نفسه، ج1، ص 584

بعد إحصانه، أو قتل نفسًا بغير نفس.»[20]، وفي حدود المحارب «روى ابن داوود بإسناده عن ابن عباس قال: وادع رسول الله ﷺ أبا برد الأسلميّ، فجاء أناس يريدون الإسلام، فقطع عليهم أصحابه، فنزل جبريل عليه السلام بالحدّ فيهم: أنّ من قتل وأخذ المال، قتل وصلب. ومن قتل ولم يأخذ المال، قتل ومن أخذ المال ولم يقتل، قطعت يده، ورجله من خلاف، وهذا نصّ.»[21]

ولئن بدا مشهد حرق الطيّار الأردني «معاذ الكساسبة» أمرًا صادمًا للرأي العام العالمي وللمسلمين أنفسهم، فإنّه يعود في الحقيقة إلى أصول فقهيّة أجازت الحرق في باب القصاص، فقد ذهبت طائفة في حقّ المرتدّ إلى مذهب عليّ (أي الحرق)، «وقالت طائفة: من حرق يحرق، وبه قال مالك وأهل المدينة والشّافعيّ وأصحاب أحمد وإسحاق.»[22] والأكيد أنّ المنتمين إلى داعش قد أوّلوا حرقهم للطيّار بكونه قصاصًا ممّن همّ بحرقهم عن طريق إلقائه القنابل على رؤوسهم.

وقد رمى منتمون إلى داعش ببعض المخنّثين من عمارات شاهقة، وهم في ذلك لا يبتدعون أحكامًا وإنّما يعملون وفق ما سنّته بعض كتب الفقه في رسمها حدود التعامل مع المخنّثين والمترجّلات، «قال ابن شعبان: ومن النّاس من يرقى بالمرجوم على رأس جبل ثمّ يرميه منكوسًا ثمّ يتبعه بالحجارة، وهو نوع من الرّجم وفعله جائز.»[23]

3- داعش وميراث البعث:

لقد أعلن أبو بكر البغداديّ الخلافة الإسلاميّة، وتزامن ميلاد هذه الدّولة مع سلسلة من الأعمال العنيفة التي استهدفت خصومها من الفصائل المقاتلة في الشام، إذ واجه تنظيم الدولة الإسلاميّة (داعش) جبهة النصرة، وقد وجد التنظيم أسباب قوّته في وجود مجال دولتين فقدتا السيّادة على أجزاء من أراضيهما بفعل غزو أجنبيّ، وهما العراق وسوريا، وسمحت الحدود المفتوحة وقيام ما سمّي بالثورات العربيّة بإيجاد انحلال مكّن كثيرًا من الطّامعين في الانضمام إلى الفصائل المقاتلة في سوريا والعراق من الانضمام إليها دون أيّ قيد أو رقيب، ومثّلت الحدود بين تركيا وسوريا أهمّ معبر للمقاتلين، إضافة إلى وجود معسكرات في ليبيا لتدريبهم قبل إرسالهم إلى ساحات الحرب وميادين المواجهة، وقد اعتمدت الإيديولوجيا الإسلاميّة باعتبارها وسيلة فعّالة لإقناع المقاتلين بالانضمام إلى التنظيم مستغلّة الشعور الدّيني الفاعل في الأنفس فعل السحر، وانفلات الخطاب الدّيني بفعل سقوط الدولة التي كانت تقوم بضبطه وتقنينه، ووجود مساحات واسعة

20 موفق الدّين عبد الله بن قدامة المقدسي، الكافي في فقه الإمام أحمد بن حنبل، ط1، بيروت، دار الكتب العلميّة، 1994، ج 4، ص 60

21 المصدر نفسه، ج4، ص 68

22 سراج الدّين أبي حفص عمر بن عليّ بن أحمد الأنصاريّ الشّافعي، التوضيح لشرح الجامع الصّحيح، ط1، قطر، دار الفلاح، 2008، ج18، ص61

23 المصدر نفسه، ج31، ص 239

للحريّة عبر الأنترنيت. فكانت تلك العوامل مجتمعةً أرضيّة خصبة لنموّ الجماعات وانتشارها في مناطق كثيرة من الدّول العربيّة خصوصًا تلك التي حصلت فيها تحوّلات سياسيّة بفعل انتفاضات شعبيّة.

لقد كان لإسقاط النظام العراقيّ على يد القوات الأمريكيّة أثر عميق في المنطقة، فقد أفضى سقوط حزب البعث العربيّ وحلّ الجيش العراقيّ إلى احتلال العراق، وقد كانت الحكومات التي تولّت الحكم بعد سقوط نظام البعث تتّبع سياسة طائفيّة، جعلتها أقرب إلى حكم الطائفة منها إلى حكم الدولة، وتزايد الشعور بالحيف، وبالاحتلال الأجنبيّ، وبزوال الوهم الذي صوّره الحالمون إقامةً لنظام ديمقراطيّ عادل[24]، فانتشرت الفصائل الجهاديّة التي تولّت مقاومة الاستعمار الأمريكي وحليفه الشيعيّ، وبرزت الأزمة الطّائفيّة في العراق بشكل جليّ وواضح فقد ساهم في تعميقها ما اتبعته الحكومات العراقيّة من سياسات غير عادلة.

وباندلاع الحرب في سوريا ودخول الجماعات المقاتلة عبر الحدود التركيّة، صار الخزّان البشريّ جاهزًا لتكوين نواة دولة على قاعدة جهاديّة وجدت فيها كثير من الدّول نصيرًا لها في مواجهة المدّ الشيعيّ وإزاحة حكم بشّار، فتوافقت المصالح الخارجيّة لكثير من الدّول مع تلك التنظيمات السنيّة، فكانت النتيجة الطبيعيّة تضخّم قدراتها العسكريّة وتوسّع مجالها، وهو ما جعلها تقرّر إقامة دولة إسلاميّة على أرض العراق والشام، ولئن وصف الرئيس الأمريكي «أوباما» في كانون الثاني يناير 2014 مقاتلي الدّولة الإسلاميّة بأنّهم عبارة عن «لاعبين مبتدئين.»[25] فإنّ قدرات هذه الدّولة بدت أكبر ممّا توقّعه العالم، فقد استطاعت إزاحة الجيش النظاميّ العراقي من أمامها ودخول الموصل، واحتلال أجزاء مهمّة من العراق، أمام ذهول أبداه الملاحظون، فإمّا أن يكون «أوباما» قد أساء تقدير قوّة الدولة الإسلاميّة في العراق والشّام، وإمّا أنّه يتعمّد إخفاء قوّتها الحقيقيّة على الرغم من وعيه بها حتّى لا يكون أوّل من يُطالب بالقضاء عليها.

لقد كان حزب البعث بمنظومة العمل الحزبي القاهر للطائفية وبجيشه العراقي القويّ آخر الحصون التي يمكن أن تواجه مدًّا زاحفًا من المقاتلين الذين يمتلكون عتادًا عسكريًّا متطوّرًا وينفذّون إعدامات جماعيّة، ويبثّون تسجيلات مرئيّة عالية الجودة كأنّما تمّ إنتاجها في هوليود، من أجل ترويع خصومهم، وتحويل فكرة الدّولة الإسلاميّة إلى أمر واقع، ولقد استطاعت هذه الدّولة أن تضمّ كثيرًا من الفصائل المقاتلة والقوى العشائريّة في العراق[26] والشام إلى صفوفها إمّا خوفًا أو بسبب حسابات سياسيّة، إذ كان المنتمون إلى تنظيم الدولة الإسلاميّة يتعاملون مع خصومهم باعتماد وسائل الترهيب التي كانت ناجعة من الناحية العمليّة في سرعة انتشارهم، أو نقمة على الممارسات الطائفيّة.

---

24 يقول سيد أبو زيد عمر: "ووضعت السياسات التي أرستها في العراق بذور الفرقة والتشرذم بين الأعراق والطوائف العراقيّة، حتّى وصلت إلى حافّة الفتنة الطائفيّة الدمويّة بين الشيعة والسنّة، التي سمحت بالمزيد من التطرّف بين الجانبين ما يهدد الكيان العراقي ذاته." سيد أبو زيد عمر، رد فعل سني على المد الشيعي في المنطقة بدعم من إيران، مجلة شؤون عربيّة، العدد 159، خريف 2014، ص 40

25 انظر: عبد الباري عطوان، الدولة الإسلاميّة الجذور، التوحّش، المستقبل، ط1، بيروت، دار الساقي، 2015، ص 35

26 يقول أحمد دياب نقلاً عن مصطفى اللبّاد: "لا يمكن لبضع مئات أو حتى آلاف من مقاتلي داعش أن تسيطر على مساحة قدرها مئة ألف كليموتر مربع ممتدّة ذات أغلبيّة طائفيّة معلومة من غرب إلى شمال العراق، من دون تأييد عشائري وسياسي واضح من سكان هذه المناطق." أحمد دياب، "المواقف العربيّة والإقليمية من أزمة العراق بعد صعود داعش." شؤون عربية، عدد 159، خريف 2014، ص 51

أفضى سقوط الدولة في العراق باعتبارها ضامنة للمواطنة حافظة للانتماء العراقيّ، وجلاء النظام الرسميّ في كثير من المناطق السوريّة بحكم انتصار الفصائل المسلّحة إلى ردّة نحو أشكال قديمة للدّولة، يمارس فيها الحكم وفق قواعد «الشريعة الإسلاميّة» التي تأسّست رؤيتها على يد كثير من المنظّرين وبقيت حلمًا في اللاشعور الجمعي وجد أسباب قيامه في ظلّ الفراغ الذي خلقه سقوط الدّولة الوطنيّة ونظام الحزب الواحد. ويتجلّى قيام هذه الشريعة في قيام الحكم على أساس مبدأ الخلافة وفي تطبيق الحدود مثلما كانت تطبّق في بواكير الإسلام، وانتهاج سبيل الحرب لنشر الدّعوة الإسلاميّة.

ومهما تعزّزت فكرة المؤامرة التي تجد أسباب قوّتها في ضعف المعالجة الدّوليّة لأزمة العراق وسوريا وانتظار كثير من الدّول نضج الثمرة قبل قطافها، وبحث دول أخرى عن تحقيق مصالحها في ظلّ الفوضى تسويقًا للسلاح وشراءً للنفط بأسعار بخسة[27]، فإنّ ذلك لا يمكن أن ينفي المرجعيّة الدينيّة التي تأسّست عليها الدّولة الإسلاميّة، وأنّ المنتمين إليها جنّدوا بفعل إيمانهم بالجهاد سبيلاً إلى الفوز في الدّنيا والآخرة، وأنّهم تأثّروا بتأويلات محدّدة للشريعة والإسلام.

وقد تتشعّب الأسباب بحثًا في سبب إيمان عدد كبير من الشباب المسلم بهذه الأفكار التي أسّست في البداية تنظيم القاعدة ثمّ تحوّلت بعد ذلك إلى تنظيم دولة على رقعة جغرافيّة واسعة تضاهي حجم بريطانيا، وتمتلك موارد ماليّة ضخمة تزيد في نفوذها وقدرتها على التوسّع واستقطاب المقاتلين.[28]

---

27 يقول نعوم تشومسكي: "إنّ أحد الثوابت في السياسة كان يقضي بأن يبقى نفط الشرق الأوسط تحت سيطرة الولايات المتحدة الأمريكيّة مع حلفائها وعملائها وشركاتها النفطيّة وبأن لا مكان على الإطلاق لأي مظهر من مظاهر نفوذ "النزعات القوميّة الجذريّة" القائمة على الرغبة في الاستقلال." نعوم تشومسكي، ردع الديمقراطيّة، (ترجمة فاضل جتكر)، ط1، دمشق، دار كنعان للدراسات والنشر، 1993، ص 179

28 يفسّر الباحثون نشأة تنظيم الدولة الإسلاميّة باعتباره يمثّل ذروة ما بلغته التنظيمات الإرهابيّة من نضج التجربة بستّة أسباب:

1- أسباب اجتماعيّة وسياسيّة: مثل الانفجار الديمغرافي والبطالة ومستوى التعليم وغيرها، والاستبداد السياسي، وفشل الدولة الوطنية في التنمية والمواطنة وإدارة العلاقة بين الهويات المختلفة.

2- أسباب تاريخية: تتمثّل في المجازر وأهوال السجون والتعذيب والحروب الأهلية التي شهدتها بؤر التوتّر.

3- الأسباب الفكرية: والمقصود بها المرجعيّات الفكريّة التي تشرّع مفهوم الجهاد وتحوّل العنف إلى جهاد مقدّس اعتمادًا على مرجعيات فقهيّة وفتاوى رجال الدين.

4- الأسباب النفسية: وهي التي تعيد الإرهاب إلى أمراض عصابيّة ومشاكل نفسيّة تبحث عن آليّات لتصريف العنف.

5- أسباب تعود إلى مفهوم الطفرة: عبر القول: إنّ «داعش» طفرة في تاريخ جماعات الجهاد العالمي، ومن ثم فالقوالب التفسيرية وأدواتها المألوفة تعجز عن استيعابها، وهي في نظرنا من الطرق السهلة التي يسعى بها محللو الظاهرة إلى تفادي الخوض في الأسباب المعقّدة التي تقف وراء نشأة هذه الحركات وتمدّدها بشكل سريع. راجع: معتز الخطيب، «تنظيم الدولة الإسلاميّة»: البنية الفكريّة وتعقيدات الواقع، ضمن ملف «تنظيم الدولة الإسلاميّة: النشأة، التأثير، المستقبل». مركز الجزيرة للدراسات، نوفمبر تشرين، 2014، ص ص 8، 9

6- أسباب سياسيّة: إذ يعتبر صلاح الدين الجورشي أنّ نماء السلفيّة الجهاديّة يعود إلى فشل الإسلاميين المعتدلين في إدارة الشأن السياسي بعد ما عرف بالثورات العربيّة، وتشتّت القوى العلمانية التي عجزت عن تكوين جبهة قادرة على مقاومة المدّ الجهاديّ، والمناخات الرديئة التي نشأت في بعض الدول مثل العراق وسوريا فمهدت الطريق لانتشار التنظيمات الجهاديّة. راجع: صلاح الدين الجورشي، فشل العلمانيون والإسلاميون فصعدت داعش، مجلة شؤون عربيّة، العدد 159، خريف 2014، ص ص 30- 39

http: //studies.aljazeera.net/ResourceGallery/media/Documents/2015/4/19/201541910294771734daeesh-file.pdf

4- الدولة الإسلاميّة: الثورات العربيّة ونظريّة الفوضى الخلاّقة:

شهد الوطن العربيّ كثيرًا من التحوّلات لعلّ من أهمّها الإطاحة بنظام الرئيس العراقيّ صدّام حسين بعد حرب طويلة المدى بدأت بغزوه للكويت وانتهت بالقبض عليه على يد القوات الأمريكيّة ومحاكمته ثمّ إعدامه يوم عيد الأضحى، ولكن يبدو أنّ تلك الخطوة التي أقدمت عليها الولايات المتّحدة الأمريكيّة مدعومةً بحلفائها لم تكن سوى بداية لسلسلة من التحوّلات السياسيّة التي عرفت بمشروع الشرق الأوسط الجديد، وقد اتضحت ملامحه بعد هجوم 11 سبتمبر 2011 فجاءت «المبادرة الأمريكيّة المتمثّلة في مشروع الشرق الأوسط الكبير (GMO) خاصّة منذ دعوة الرئيس الأمريكي جورج بوش الابن إلى إصلاحات ديمقراطيّة يكون مسرحها ممتدًّا من الصحراء الغربيّة إلى مقاطعة البيليتيس بباكستان، باستثناء ما اصطلح عليه بدول محور الشرّ واستثناء إسرائيل التي تشكّل النموذج الديمقراطيّ الأمثل بالمنطقة حسب الرؤية الأمريكيّة.»[29]

ولم يتأسّس المشروع الأمريكي على مجرّد استراتيجيّة خارجيّة تسعى إلى تغيير الأنظمة العربيّة لتحقيق مصالحها، وإنّما نتيجة وعي عميق بوجود أرضيّة شعبيّة لقيام انتفاضات ضدّ الحكّام بعد أن تزايد الوعي بالدكتاتوريّة، واضطلعت وسائل الإعلام بمهمة خرق الاحتكار الذي كانت تفرضه الحكومات العربيّة على القنوات الرسميّة، وظهور وسائل اتصال حديثة مكّنت من تجاوز كلّ وسائل المنع والتعتيم التي انتهجتها الدكتاتوريات، وهو ما دعا «علي حرب» إلى الحديث عن «الثورات الناعمة».

بيد أنّ ما سمّيت مجازًا بالثورات لم تحافظ على نعومتها، بل تحوّلت في كثير من الدّول إلى فوضى سياسيّة وعسكريّة، ففي ليبيا فتح سقوط نظام القذّافي الباب أمام نزاعات قبليّة لاقتسام السلطة وتصارعت الفصائل المسلّحة من أجل اكتساب نفوذ أوسع والاستيلاء على الموارد النفطيّة، ووجدت التنظيمات الجهاديّة المسلّحة أرضيّة خصبة للانتشار وتنظيم صفوفها إيذانًا بالتوسّع وإعلان دولة إسلاميّة في بلاد المغرب، تضاهي تنظيم الدولة الإسلاميّة في العراق والشام، [30] وليس من الصّعب أن تجد تلك التنظيمات مجالاً للانتشار والتوسّع في ظلّ وجود الجزائر في القائمة الدّوليّة لمشروع الشرق الأوسط الجديد، وما تحتويه من مخزون ضخم من الغاز والنفط، ونسبة كبيرة من الشباب اللذين يمثّلون خزّانًا بشريًّا للحركات الجهاديّة ومشاريعهم التوسّعيّة.

---

29 عبد القادر رزيق المخادمي، مشروع الشرق الأوسط الجديد، ط1، الجزائر/ لبنان، ديوان المطبوعات الجامعيّة/ الدار العربيّة للعلوم، 2005، ص ص11، 12

30 يقول إغناتنكو: «ينحصر الهدف الرئيس، حتى إن لم يكن الوحيد الذي يراه منظرو التنظيمات الدينيّة السياسيّة المتطرّفة في الآونة الأخيرة في الوصول إلى السلطة بالطّرق العنيفة. وهم عمليًّا يبتعدون عن دراسة المسائل الحقيقية للمجتمع العربي، حتّى لو كانت انطلاقًا من مواقع دينيّة تقليديّة. وفي المقام الأوّل، حتّى في المقام الوحيد، يبرز عندهم هدف وحيد: الاستيلاء على السلطة السياسيّة وإقامة الدولة الإسلاميّة.» أ. أ. إغناتكو، خلفاء بلا خلافة «التنظيمات الدينية السياسية المعارضة في الشرق الأوسط» تاريخ- أيديولوجيا- نشاطات، (ترجمة يوسف إبراهيم الجهماني)، ط1، دمشق، دار حوران للطباعة والنشر والتوزيع، 1997، ص ص 233، 234

لقد بدأ مشروع الفوضى الخلاّقة ينكشف بعد ما حصل في سوريا واليمن، فهما دولتان تعيشان كلّ أشكال الفوضى، وصارتا ساحة للصراعات الدّوليّة بين قوى عظمى، ففي اليمن تتحالف دول الخليج السنيّ ضدّ تنظيم الحوثيّين الشيعيّ، وفي سوريا يتصارع النظام المتحالف مع إيران وروسيا وحزب الله، ضدّ التنظيمات التي تدعمها قوى غربيّة كالولايات المتّحدة وتركيا وفرنسا وأخرى عربيّة هاجسها إزاحة الرئيس السوريّ بشار الأسد عن سدّة الحكم. وأفضت الفوضى إلى غياب السلم الاجتماعيّ وتحوّلت الحياة في اليمن وسوريا إلى ساحات حرب قد يكون أصحاب الأرض آخر المستفيدين منها، وهو ما جعل كثيرًا من السّوريين ينزحون من بؤر التوتّر بحثًا عن أمكنة آمنة في الدّول المجاورة أو في أوروبا، فكان من آثار الفوضى تغيير البنية الديمغرافيّة لتلك المناطق بجلب مقاتلين من دول أخرى وإجلاء أصحاب الأرض عنها وتلك من أغرب المفارقات في مشروع الحرّية والديمقراطية على الطريقة الأمريكية. فقد قضت الفوضى التي يبدو أنّها لم تكن خلاّقة مثلما رُوّج لها بقتال وقتل ودمار وتهجير ونهب للثروات وعنف متبادل بين الأطراف المتنازعة، فآل الأمر إلى ما يشبه سياسة الأرض المحروقة التي يبدو أنّ المستفيد الأكبر منها هو النظام الإسرائيلي الذي انتهت محنته مع حزب الله أكبر خصم استبسل في الدفاع عن الأراضي اللبنانيّة في حرب 2006، ومن ورائه النظام السوري الدّاعم لخطّ المقاومة والرافض للتطبيع، فقد صار منشغلاً بشأنه الدّاخليّ غير قادر على إثارة مشاكل حدوديّة مع عدوّه التاريخي وغير مؤهّل للمطالبة بهضبة الجولان.[31]

لقد تحوّلت نظريّة الفوضى الخلاّقة إلى حقيقة ملموسة في الوطن العربيّ[32]، وأوّل عيّنات الفوضى ظهرت في أرض العراق التي انقلب فيها وضع السكّان من السّلم الاجتماعيّ إلى الانقسام الطّائفيّ، وصار تقسيم العراق إلى شمال كردي وجنوب شيعي وقلب سنّي أمرًا متحقّقًا على أرض الواقع، فالحكومة الشيعيّة لم ترض طموحات السنّة في العدالة والدّيمقراطيّة، وهو ما خلق تنظيمًا أسّس دولة أخرى هي الدولة الإسلاميّة في العراق والشّام، والأكراد يكتسبون شبه استقلال سياسيّ واقتصاديّ في ظلّ ضعف الدّولة الفاشلة التي لم تعد قادرة على حماية أراضيها، وصارت مخترقة من قوى خارجيّة، وليس أدلّ على ذلك من دخول قوات برّية تركيّة الأراضي العراقيّة دون أن تحصل على إذن مسبق من الحكومة، وقيام القوات الكرديّة بالدّفاع عن مجالها الجغرافيّ ومصالحها الاقتصاديّة بعد تمدّد داعش في شمال العراق واستيلائها على الموصل أمام عجز الحكومة المركزيّة عن حماية أراضيها.

31 يقول مايكل كولينز بايير: "إنّ الحرب على العراق هي ببساطة الخطوة الأولى في تنفيذ خطّة عدوانيّة واسعة وقديمة ضدّ العالم العربيّ والشرق الأوسط من أجل إعادة تشكيل العالم العربيّ لتأمين بقاء وهيمنة إسرائيل وتوسيع قوّتها... إنّ الحرب ضدّ العراق وخطّة السيطرة والهيمنة على الشعوب العربيّة هي تنفيذ للحلم الصهيوني التاريخي بإنشاء إسرائيل العظمى بصورة عصريّة ومعدّلة لكي تتوافق مع رغبات شركات البترول العالميّة، والمستعدّة بدورها للمساهمة في السيطرة على الدول العربيّة المنتجة للبترول بالمشاركة مع إسرائيل." مايكل كولينز بايير، كهنة الحرب الكبار، (ترجمة عبد اللطيف أبو البصل)، ط1، السعوديّة، مكتبة العبيكان، 2006، ص 26

32 يعتبر رمزي المنياوي أنّ الفوضى الخلاقة تقوم على ثلاثة أسس وهي إطلاق الصراع العرقي وإطلاق صراع العصبيّات وضرب الاستقرار الأمني وخلخلة الوضع الاقتصادي والتعبئة الإعلاميّة. انظر: رمزي المنياوي، الفوضى الخلاّقة، السيناريو الأمريكي لتفتيت الشرق الأوسط والنظريّة الصهيونيّة التي تبنّتها أمريكا لشرذمته، ط1، دمشق/ القاهرة، دار الكتاب العربي، 2012، ص 203

وفي سوريا صارت القسمة السنيّة الشيعيّة جليّة فالفصائل التي تعارض النظام تتبنّى الفكر السنيّ وإن تضاربت مصالحها، والفصائل المقاتلة مع النظام في جلّها ذات عقيدة شيعيّة، والحرب في اليمن بين الحوثيّين والتحالف السّعودي الخليجي تقوم أيضًا على ثنائيّة سنيّة شيعيّة.

ولم تكن الدّول التي لا وجود فيها للمشكل الطّائفيّ لتسلم من التقسيم، وإن اختلفت أشكاله ومظاهره، فقد بدأت بوادر الانقسام في تونس مثلاً بين إسلاميين وعلمانيين تؤثّر في وحدة المجتمع، ولولا رسوخ العلمانيّة وروح المواطنة لكانت تونس تعيش صراعًا بين إيديولوجيتين في الوقت الذي لم يكن من الممكن إثارة الخلافات الطائفيّة.

وحين فشلت التجربة الأولى واصطدمت بوعي النخب ووسائل الإعلام بخطورة المشروع، تحوّل مشروع التقسيم إلى ثنائيّة شمال/ جنوب، وبلغ ذروته أثناء الانتخابات الرئاسيّة، ولكنّه فشل بدوره في تجزئة المجتمع التونسيّ لأنّ تفكيك البلاد وفق تلك الهندسة لم يكن واقعيًا، في ظلّ وجود كثير من أبناء الجنوب التونسيّ في الشمال والسّاحل، ورسوخ مفهوم المواطنة الذي اضطلعت دولة الاستقلال بدور كبير في ترسيخه وتحويله إلى عقيدة رسميّة للتونسيين، ولذلك فقد نجح الرباعي الراعي للحوار في إقناع حزب النهضة الإسلامي بالتنحّي عن الحكم وتكوين حكومة كفاءات وطنيّة بعد قيام كثير من الاحتجاجات ضدّ حكمها.

وبدا هذا التقسيم أكثر جلاءً في مصر إذ كانت الأرضيّة مهيّأة للفصل بين الإسلاميين وأعدائهم من العلمانيين واليساريين، وقد وقع الإخوان المسلمون في فخّ الاستعداء وإثارة الخلافات مع المسيحيين والخصوم العلمانيين واليساريين، وانتهى الأمر إلى قيام انتفاضات شعبيّة وصراع على الميادين انتهى بإزاحة نظام الإخوان المسلمين عن الحكم والزجّ بقادته في السجون، والحكم عليهم لاحقاً بأحكام تصل حدّ الإعدام.

لا شكّ أنّ التفكير بزاوية النظر الأمريكيّة يجعل من الولايات المتّحدة الأمريكيّة مستفيدة من حالة الفوضى التي أصابت الدّول العربيّة والإسلاميّة، فقد تحوّل كابوس الإرهاب من أراضيها إلى مهده الأصليّ وصارت جهود المقاتلين والانتحاريين والراغبين في العنف محلّية، وفتحت الفوضى الخلاّقة الباب أمام شركات السلاح كي تحقّق أرباحًا طائلة في بؤر التوتّر وفي إطار مقاومة الأنظمة التي استعصى الإطاحة بها، وفتحت جبهات جديدة للحرب في اليمن وفي ثغور مصر وفي ليبيا زادت من الطلب العالمي على الأسلحة، وانخفض سعر النفط[33]. وصارت قدرة الولايات المتحدة الأمريكيّة أكبر على التأثير في القرارات السياسيّة

33 يقول نعوم تشومسكي: "إنّ منطقة الخليج هي المنتج الرئيسي للطّاقة منذ الحرب العالميّة الثانية ويتوقع أن تظلّ كذلك جيلاً آخر على الأقلّ. ويضمّ العراق ثاني أضخم احتياطي نفطي في العالم، ومن السّهل استخراج النفط العراقيّ، كما أنّ ذلك غير مكلف. وإذا ما سيطرتَ على العراق، تصبح في موقع قويّ جدًا لتحديد السّعر ومستويات الإنتاج (غير عالية جدًا وغير منخفضة جدًا) لتقويض منظّمة البلدان المصدّرة للنفط (أوبيك)، والإلقاء بثقلك في كلّ أنحاء العالم. وليس لذلك أيّ علاقة البتّة في الوصول إلى النفط لاستيراده إلى الولايات المتّحدة، بل هو متعلق بالسيطرة على النّفط." نعوم تشومسكي، طموحات إمبرياليّة، (ترجمة عمر الأيّوبي)، ط1، بيروت، دار الكتاب العربيّ، 2006، ص 13

للدّول التي صارت بالفعل دولاً فاشلةً لا تستطيع توفير الأمن لمواطنيها، وتعيش أزمات اقتصاديّة بعد أن أعطت الانتفاضات الشعبيّة أملاً للمحتجّين في عدالة اجتماعيّة أكبر وتحقيق لمطلبي الكرامة والشغل.

وقد وجدت الجماعات المسلّحة ذات الخلفيّة الإيديولوجيّة المؤمنة بالجهاد في تلك الدّول الفاشلة أرضيّة لاستعراض قوّتها وتكوين دولتها، وتخلّت عن أسلوب التخفيّ الذي كانت تتّبعه القاعدة ليصير ظهور التنظيم أكبر إذ صار له مقرّ لدولته وجيش يدافع عن رايته.

5- داعش: العنف الذي ملأ الدنيا وشغل الناس:

لا حديث اليوم في وسائل الإعلام إلاّ عن العنف الدّاعشيّ وعن الأعمال الإرهابية التي يقوم بها في كامل أنحاء العالم، وبعد أن صار من المألوف قيامه بأعمال حربيّة في السّاحة العراقيّة والسوريّة والليبيّة، امتدّ نفوذ هذا التنظيم ليقوم بعمليّات جريئة في مناطق من أوروبا وأمريكا ذاتها، مثل عمليّة العاصمة الفرنسيّة باريس التي بلغ فيها عدد القتلى 130 ضحيّة وظهور بعض العلامات التي تؤشّر لقيام رجل وامرأة في أمريكا بعمليّة إرهابيّة أودت بحياة أربع عشرة ضحيّة. ولعلّ النتيجة التي يمكن أن نخلص إليها من تزامن ازدياد المنتمين إلى التحالف الدولي ضدّ تنظيم داعش وتوسّع نفوذ هذا التنظيم فرضيّتان: فإمّا أن يكون التعامل مع هذا التنظيم واقعًا في أخطاء ومتّبعًا لتكتيكات تعطي نتائج عكسيّة لعلّ من أهمّها قتل المدنيين والسماح للعدوّ بالنجاة والتبادل التجاري معه[34] مثلما ورد في تصريحات الرئيس الروسي «بوتين» عن استغلال تركيا للنفط الذي تبيعه داعش، وتبدو آثار هذه الأخطاء جليّة في العراق وسوريا، حيث زادت الضربات من أتباع التنظيم، وتمدّد بدل أن ينحسر نفوذه. وإمّا أن وجود هذا التنظيم يخدم مصالح دول أخرى تدعمه سرًّا، ألم يتّهم الرئيس الروسي بعض الدول بأنّها داعمة للإرهاب؟ ألا تبدو الحدود التركيّة المفتوحة على مصراعيها تآمرًا ضدّ السلم العالمي وفتحًا لممرّ آمن لمقاتلي داعش؟ وهل يمكن تصوّر قوّة التنظيم دون وجود دعم دول من المنطقة تساعد على توفير الأسلحة؟

قد تتفنّن بعض الدّول في إخفاء تعاملها مع هذا التنظيم، وذاك أمر ليس بالعسير، ولكنّ ذلك لا يمكن أن يؤول إلى نظريّة المؤامرة التي تعيد أسباب الفوضى وقيام مثل هذه التنظيمات إلى مؤامرة غربيّة ضدّ الإسلام والمسلمين، فالمسلمون هم أوّل المتآمرين على أنفسهم. ألم تنشأ داعش من هويّة عنصريّة تقوم على معتقد اصطفائيّ «يزرع في عقل المسلم منذ النشأة، شعورًا عارماً بالنرجسيّة التي تجعله يؤمن بأنّ أهل ملّته أو فرقته ليسوا كبقيّة النّاس، لأنّ الله اختارهم ليكونوا ناطقين باسمه أو يجسّدون كلمته، أو لكي يختم بهم وحيه ويبلّغ إلى العالم آخر رسائله. لذا هم في نظره، وحدهم أهل الإيمان الصحيح والسائرون على الصراط المستقيم والنهج القويم، وما عداهم في ضلال مبين، إنّه داء الاصطفاء وفخّ الاستثناء. والوجه الآخر للمعتقد

34 انظر: ديفد كين، حرب بلا نهاية، وظائف خفيّة للحرب على الإرهاب، (ترجمة معيم الإمام)، ط1، السعوديّة، مكتبة العبيكان، 2008، ص 97

الاصطفائي هو اليقين الدغمائيّ الذي يوهم كلّ متديّن وبخاصّة المسلم، بأنّ كتابه الذي هو عنده بمثابة نصّ مقدّس أو منزّل أو مطهّر، وحده الكتاب الحقّ الذي لا يأتيه من أيّ وجه، وبأنّه ينتمي إلى جماعة هم وحدهم مالكو مفاتيح الحقيقة والاستقامة والهداية والسّعادة.»[35]

لقد فتحت الديمقراطيّة، في كثير من الدول التي عرفت انتفاضات شعبيّة أطاحت بحكم دكتاتور، الباب على مصراعيه للتنظيمات الجهاديّة كي تحتلّ فضاء المساجد وتستغلّ الخطاب الدّيني من أجل نشر أفكارها، وقد وجدت في الكبت التاريخي الذي عرفه المسلمون طوال سنوات القمع وغياب حريّة الرأي أرضيّةً للانتشار واستقطاب أعداد كبيرة من الشباب الحالمين بإقامة دولة الإسلام والجهاد في سبيل الله، ويبدو أنّ تلك التحوّلات التي عاشتها بعض الدول العربيّة لم تكن على مقاس النظريّة التي روّجت لها الإدارة الأمريكيّة، في مراكز أبحاثها الاستراتيجيّة، فالتحوّل من «مجتمعات الخوف» إلى «مجتمعات الحريّة» على حدّ عبارة شارانسكي المنشق السوفياتي والوزير الإسرائيلي السابق الذي استقال من حكومة شارون سنة 2005، حوّلت كثيرًا من المجتمعات العربيّة من خوف من الزعيم المتحكّم في رقاب الناس وألسنتهم، إلى خوف من تنظيمات تحكم بشريعة الرعب وقطع الرؤوس وصلب المخالفين، وقد تكون الفوضى الخلاّقة التي آمن بها الأمريكيون فوضى مدمّرة تعصف بالدولة الوطنيّة التي تطلّب تكوينها سنوات طوال[36]، وبالأمن والسلم الاجتماعيين، وبالتوازنات الاقتصاديّة التي كانت تضمن حدًّا أدنى من العيش الكريم على الرغم من الحملات الإعلاميّة التي شنتها كثير من وسائل الإعلام على الأنظمة الزائلة والرؤساء المخلوعين.

وقد تحدّثت وزيرة الخارجيّة الأمريكيّة «كونداليزا رايس» في معرض إجابتها عندما سئلت عن الفوضى التي قد تحدثها تدخّلات الولايات المتّحدة في منطقة الشرق الأوسط فقالت: «إنّ الوضع الحالي ليس مستقرًا، وإنّ الفوضى التي تفرزها عمليّة التحوّل الديمقراطيّ في البداية هي فوضى خلاّقة ربّما تتيح في النهاية وضعًا أفضل ممّا تعيشه المنطقة حاليًا.»[37]

ولكن القناة التي جعلت من داعش غول العالم الجديد، تحتاج بدورها إلى نظر، وهي التلفزيون والأنترنات، فهل تكون اضطلعت بدور المخيّلة الإنسانيّة الجديدة التي تعيد تشكيل الأشياء بحسب وجهة نظرها، وهل يكون الخوف صناعة إعلاميّة؟

35 علي حرب، المصالح والمصائر صناعة الحياة المشتركة، ط1، الجزائر/ بيروت، منشورات الاختلاف / الدار العربية للعلوم ناشرون، 2010، ص ص 31، 32

36 ظهر بعد التحولات السياسية في الوطن العربي منذ 2011 طموح إلى تقييد سلطة الدولة سعيًا إلى تفكيك استبدادها، وتمّ ذلك أولاً من خلال تفكيك الشرعية الخارجية للدولة القطريّة القائمة على التبعية والأنموذج المستورد والتغريب الثقافي وإضعاف السيادة السياسيّة والاقتصاديّة والثقافيّة، وسميّ آليّة التحرير. وتمّ ثانيًا من خلال إعادة هيكلة بنية السلطة والقرار المركزيّ نحو تفعيل لا مركزيّة سلطة حقيقيّة تدمج المجتمعات المحليّة وتمنحها حكمًا ذاتيًا في تدبير شؤونها التنموية وهو ما اصطلح عليه "اللامركزيّة." انظر: سلمان بو نعمان، حو نموذج لاستعادة نهضة الأمّة، ط1، أسئلة دولة الربيع العربي، بيروت، مركز نماء للبحوث والدراسات، 2013، ص 257

37 مجدي كامل، الفوضى البنّاءة الدمار الخلاق والثورات الملوّنة والشرق الأوسط الجديد الذي تريده أمريكا، ط1، دمشق/ القاهرة، دار الكتاب العربيّ، 2014، ص 10

لئن تحدّث «بيار بورديو» (Pierre Bourdieu) عن التلفزيون آليّة للتلاعب بالعقول في مجتمع أوروبيّ لا يزال فيه للكتاب أثر كبير في حياة الإنسان، ولا تزال فيه عادات القراءة راسخة لدى كثير من الناس، فإنّ الحديث عن التلفزيون في الوطن العربي يصير أعظم أثرًا وأقوى فاعليّة باعتباره تحوّلَ في وعي كثير منهم إلى قناة وحيدة للمعرفة وأداةً سهلة للاطلاع على الأخبار، وقد ساهم تعدّد الفضائيّات في ديمغوجيا إخباريّة إن صحّ التعبير تفرض على المشاهد نسقًا محدّدًا من الأخبار قادرًا على توجيه الرأي العام والتحكّم في مواقفه وآرائه[38]، إذ قليلاً ما توجد المساحات النقديّة التي تمكّن المشاهد من آليّات مساءلة وبناء لرأي بعيدًا عمّا تفرضه تلك القنوات من وجهات نظر، وحتّى القنوات التي توهّم كثيرٌ من الناس أنّها تؤسّس للرأي والرأي الآخر[39] فقد تحوّلت إلى رأي واحد وزاوية وحيدة للحقيقة بعيدة عن الموضوعيّة بعد أن انخرطت بقوّة في الإعلام الإيديولوجي الدّاعم لفريق من السّاسة على حساب الآخر، ويكفي مثلاً أن نضرب مثل التسميات دليلاً على تبنّي مواقف من النزاعات الواقعة في الوطن العربي، فالفصائل المقاتلة للنظام السوري يسمّى بعضها الجيش الحرّ بكل ما تحمله التسمية من شحنة الشرعيّة وقيم الحرّية، والجيش النظاميّ المقاتل يسمّى ميليشيات النظام، والجماعات الأكثر خرقًا للشرعيّة الدوليّة (داعش) تسمّى تنظيم الدولة الإسلاميّة بكلّ ما في الكلمة من اعتراف بالطابع التنظيمي وبشرعيّة الدولة الإسلاميّة، وإذا كان ذلك التحيّز ظاهرًا في مستوى التسمية فإنّ الأمر يصير أعقد في كيفيّة صياغة الخبر، بل قل انتقاء الأخبار، وتسويقها، وتهميش بعضها وتضخيم بعضها الآخر إضافة إلى اعتماد آليّات التزييف والمغالطة التي تخفي كثيرًا من الحقائق وتروّج للأكاذيب، حتّى صار الإعلام المحايد وهمًا من محض الخيال.

قد يكون إرث الاستشراق حاضرًا في رسم صورة المسلم الإرهابيّ إذ يمكن القول إنّ «هناك ما يمكن أن يوسم بأنّه جذور عميقة في نمطيّة صورة العربيّ المسلم في وسائل الإعلام الأمريكيّة ولدى قطاعات واسعة من الرأي العام، هذه النمطيّة حاضرة أيضًا في المدارس والجامعات ومراكز الأبحاث، كما هي موجودة في مؤلّفات ومنشورات كثيرة.»[40]، وليس ذلك أمرًا غريبًا في ظلّ رسوخ صورة الشعب الغني والمتخلف والبدائي وغير المتحضّر، والذي يسيء معاملة المرأة والمولع بالحروب وسفك الدماء، في مواقف المستشرقين وخيال الروائيين وأفلام السينمائيين، ولكن الخطير أنّ تلك الصّورة لم تبق حكرًا على المجتمع الأمريكي في ظلّ إعلام معولم خارق للقارات والحضارات وإنّما انتقلت عدوى الخوف من المجتمع

38 «بالنظر إلى الاتجاهات البحثيّة على مرّ العقود الماضية والتي كانت تبالغ أحيانًا في تقدير قيمة التأثير وأحيانًا أخرى تقلّل من قيمته، فإنّ النظريّات الحديثة تقدّم اتّجاهًا شرطيًا يكون فيه تأثير الإعلام الإخباري على اتجاهات المواطنين عميقًا.» ماكس ماكومز/ ر. لانس هولبرت/ سبير كيوسيس/ واين وانتا، الأخبار والرأي العام تأثير الإعلام على الحياة المدنيّة، (ترجمة محمد صفوت حسن، ط1، القاهرة/ الجزائر، دار الفجر للنشر والتوزيع/ الدار الجزائريّة للنشر والطبع والتوزيع، 2012، ص 126).

39 انظر ما غلب على نقاشات برنامج الاتجاه المعاكس على قناة الجزيرة الذي يقدمه فيصل القاسم مثلاً من رأي واحد في نقاش القضيّة السوريّة، أو في النظر إلى الأوضاع السياسيّة في مصر.

40 عبد الحليم حمود، الإعلام التضليلي، دور الدعاية والإعلان الغربيّة في تشويه صورة الإسلام، ط1، لبنان، دار المؤلف، 2010، ص 225

الأمريكي إلى العالم بأسره[41]، ولكننا حين نتساءل عن الأسباب التي ساهمت في رسم صورة قاتمة للعربي المسلم في الإعلام العالمي، نجد أكثر من إجابة، لعلّ أكثرها شيوعًا هي أنّ الآلة الإعلاميّة تحاول تشويه الإسلام والمسلمين، وأنّ من مصلحة الكيان الصهيوني أن يخلط أوراق الإرهاب بالمقاومة ليحقّق أهدافًا طالما حلم بتحقيقها، وتتمثّل في جعل الرأي العالمي يقرّ بشرعيّة دولة إسرائيل مقابل تحويل صورة المدافعين عن القضيّة الإسلاميّة إلى إرهابيين يجوز قتلهم أو اعتقالهم أو ملاحقتهم. ولكن حتّى وإن سلّمنا بتلك الحقيقة، فهل يعفينا ذلك من مساءلة ذاتيّة للمسؤوليّة الإسلاميّة في ترسيخ تلك الصورة؟ ولماذا استطاع اليهوديّ تجميل عنفه؟ وكيف برع المسلمون في تقبيحه؟

قد نتفهّم تشكيل الرأي العام في ظلّ وجود قنوات تخضع لروافد إخباريّة واحدة تتحكّم فيها قوى عظمى، ولكن كيف يمكن أن نتفهّم تلك الصورة التي ظلّت قاتمة على الرغم من انفتاح الإعلام وظهور روافد إخباريّة جديدة تختلف اختلافًا كبيرًا عن الإعلام الإخباري التقليديّ مثل «فايس بوك» و«تويتر» و«يوتوب»، فلم يعد الصحفيّ وحده المتحكّم في صناعة الرأي العام، ولا الشركات الإعلاميّة الكبرى تنفرد بصناعة القرار وتوجيه الأخبار. إذ يمكن لأيّ شخص أن يصوغ خبرًا وأن يسوق حجّة دامغة بالصوّرة وينشرها على مواقع التواصل الاجتماعي، ولكن يبدو أنّ الفشل في تسويق صورة الإسلام المتسامح لا يزال أمرًا مقضيًا في القنوات الرسميّة وفي مواقع التواصل الاجتماعي، فأخبار القتل والذبح ومشاهد الإعدام تسيطر على مساحات واسعة من تلك الوسائل وتزيد صورة الإسلام الفاشي رسوخًا من خلال الجرائم التي يرتكبها المقاتلون باسمه.

لقد ظهرت كثير من القنوات الدعويّة التي تبثّ الفتاوى على الهواء، وتوزّع صكوك التوبة على الباحثين عنها، وقد كان لها الدور الأكبر في تحويل وعي كثير من الشباب من الحياة المدنيّة والمساهمة الفاعلة إلى كائنات باحثة عن السعادة الأخرويّة، واضطلعت تلك القنوات بدور خطير في تحويل وجهة الشباب من سياقات المجتمع بكلّ تناقضاته إلى بؤر الطوباويّة والانغلاق على الذات، وعلى الرغم من اختلاف مقاصد تلك القنوات ومرجعيّاتها الدّينيّة إلاّ أنّها كانت الأرضيّة الخصبة لظهور جيل المقاتلين باسم الإسلام والمؤمنين بالجهاد سبيلاً لنشره، وقد استغلّ الشيوخ الذين احتلّوا مواقع التأثير في تلك القنوات الرغبة النفسيّة الكامنة في عمق شخصيّة المسلم من أجل توظيفها وتحويلها إلى مصدر «كبت عقائدي» باحث عن سبل لتصريف العنف، وتحقيق الحلم المنشود بالمدينة الإسلاميّة الفاضلة على أنقاض مجتمع جاهليّ فسدت أخلاقه وغرته الحياة الدنيا. فقد كانت الأرضيّة النفسيّة مهيّأة لقبول فكرة الجهاد، وتحويل المخزون النفسي

41 «تعتمد وسائل الإعلام الأمريكيّة على المصادر الرسميّة في الحصول على المعلومات، مثل البيت الأبيض ووزارة الخارجيّة ووزارة الدفاع، خاصّة فيما يتعلّق بتغطية الشؤون الخارجيّة، وبسبب الاعتماد على هذه المصادر، فإنّ تغطية الأحداث تكون مشوّهة ومنتقاة كما يتمّ التلاعب بطريقة تغطية الحدث، وهذا الأمر يجعل من الصّعب على الرأي العام الأمريكيّ فهم الظّروف والأوضاع في الدّول الأجنبيّة. ولا يكتفي الإعلام الأمريكي بتشويه الأخبار، وإنّما يعمد إلى بثّ الخوف والرعب في قلوب الرأي العام الأمريكي... ولا يجرؤ صحفيّ على كتابة رأيه بصراحة، لأنّ ذلك سوف يكلفه فقدان وظيفته خلال أربع وعشرين ساعة.» ريا حمدان القحطاني، الإسلاموفوبيا، جماعات الضغط الإسلاميّة في الولايات المتّحدة الأمريكيّة، ط1، مصر، العربي للنشر والتوزيع، 2011، ص 66

إلى طاقة تدفع إلى القتال في ساحات الوغى، ويوم انفتحت جبهات القتال تدافع الشباب المؤمن بالجهاد من كلّ حدب وصوب. فكان التلفزيون آليّة لصناعة الإرهاب وتكوين التنظيمات السياسيّة باعتماد الديماغوجيا وسلطة المقدّس الخارقة.

ولم يكن إعلام الإثارة بأقدر على تشكيل رأي عام متسلّح بالنقد ومؤمن بالتسامح، بل إنّ «معظم القنوات الفضائيّة العربيّة غلب على إنتاجها البرامجي الطابع الترفيهي المقلّد لما ينتجه الغرب، والدليل على ذلك «الفيديو كليب» الذي يبثّ على القنوات الفضائيّة العربيّة، والذي تقدّم فيه المرأة على أنّها سلعة للعرض وجذب الأنظار نحوها من أجل الترويج للسلع الاستهلاكيّة التي يكون الهدف من ورائها دائمًا الربح السريع.»[42] وقد ساهم هذا النوع من الإعلام في تعميق الكبت الجنسي[43]، وتهيئة الأرضيّة النفسيّة للعنف، فكان بدوره خادمًا للحركات الجهاديّة، فقد تمّ تصعيد الكبت بأحلام الجنان والحور العين، واكتساب شرعيّة المقاومة العنيفة للفساد الأخلاقي والاعتداء الغربي على الأخلاق الإسلاميّة. واجتمعت بذلك الأضداد وتواطأت من أجل شحن الأنفس بالعنف وتهيئتها للقتال والموت.

6- داعش أيّ مصير؟

قد يتصوّر بعضهم أنّ داعش بكلّ الهالة الإعلاميّة التي أحاطت بها يمكن أن تمثّل خطرًا على السلم العالميّ وتكون حقّاً مشكلاً للعالمين العربيّ والغربيّ، وقد يزداد الوهم بارتفاع عدد المتحالفين ضدّ هذا التنظيم بأنّه مارد يشبه الاتحاد السوفياتي زمن حربه الباردة مع الولايات المتحدة، ولكنّ الحقيقة أنّ ما يحمله هذا التنظيم من ظاهر القوّة، هو في الحقيقة مجرّد وهم، وأنّ مصير داعش سيكون أقرب إلى مصير القاعدة التي خفت صوتها بعد ولادة خلفها، ولعلّ عقد مقارنة بسيطة مع حزب الله يمكن أن يرينا أسباب القوّة التي تنعكس على مرآتها أسباب ضعف داعش ومصيرها الآيل إلى الاندثار، فأسباب القوّة التي مكّنت حزب الله من الصمود في وجه أعتى الترسانات العسكريّة في منطقة الشرق الأوسط سنة 2006 تتمثّل في عوامل متكاملة لعلّ من أهمّها الاستقلال والسريّة، وتوسيع قاعدة المقاومة واستخدام أساليب قتاليّة متطوّرة وتعدّد التكتيكات والعمليّات وتطوير قدرات استخباريّة عالية واعتماد الحرب النفسيّة والإعلام الحربي ومواجهة العدوّ وتهدئة الداخل والمشروعيّة الدوليّة للمقاومة المسلّحة[44] إضافة إلى وجود حليف دائم وثابت في مستوى خلفياته الإيديولوجيّة وأهدافه الاستراتيجيّة، أمّا داعش فهي تنظيم غير مستقلّ إذ تتشابك علاقاته مع مصالح دول تتضارب أحيانًا وتختلف أهدافها وهي من الناحية الاستراتيجيّة غير ثابتة ولذلك فحلفاء اليوم يمكن أن

42 مؤلف جماعي، الإعلام وتشكيل الرأي العام وصناعة القيم، ط1، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربيّة، 2013، ص 81

43 راجع: سيقموند فرويد، خمسة دروس في التحليل النفسيّ (تقديم وتعريب رضا بن رجب، عبد الرزّاق الحليوي)، ط1، تونس، دار المعرفة للنشر، (د ت)، ص ص 41- 54

44 لتقصي هذه العوامل راجع: جون روبرت، حرب العصابات المقاومة بديلاً عن الحرب، (ترجمة إيهاب كمال محمّد)، ط1، القاهرة، الحريّة للنشر والتوزيع، 2006، ص ص 71- 74

يتحوّلوا بين ليلة وضحاها إلى أعداء يقصفون مواقعها بعد أن زوّدوها هم أنفسهم بالسلاح، وهذا التنظيم مخترق من الناحية الاستخباريّة لأنّ كلّ وافد من دولة إسلاميّة يمكنه الانتماء إليه والتحوّل بسرعة إلى مقاتل في صفوفه، ولذلك فمن اليسير على أيّ جهاز استخبارات عربي أن يكون له جواسيسه في هذا التنظيم، ولقد باتت تكتيكات الحرب التي يعتمدها المقاتلون تقليديّة إذ سهّل ظهور التنظيم للعلن قصفه، وصار من اليسير استهداف معاقله، إذ كان تحوّله السريع من تنظيم سرّي إلى دولة لها رايتها ومجالها الجغرافيّ خطأً جعل مواجهته أمرًا يسيرًا متى توفّرت الإرادة، ولعلّ هزيمته أمام المقاتلين الأكراد في «كوباني» خير دليل على حدود إمكانياته العسكريّة متى لقي مقاومة حقيقيّة. ولئن بدت الأساليب التي اعتمدها التنظيم صادمة في البداية لخصومهم مرعبة لقلوبهم، محقّقة لهدف الترهيب، فإنّ تكرار تلك العمليات قد جعلها أمرًا غير ذي بال في كثير من المناطق إذ ساد يقين في كثير من الدّول بأنّ جنود الدولة الإسلاميّة المزعومة مجرمون ومخرّبون ولا علاقة لهم بالإسلام، وهو ما سحب من تحت أقدامهم بساط الشرعيّة وبثّ يقينًا لدى الرأي العام بأنّ ما يقترفونه من أعمال يعدّ في باب الجريمة وإزهاق الأرواح بغير حقّ، فباتت داعش شيطان العولمة التي لا تتوانى طائرات الغرب الأمريكي والسوفياتي في رجمه، وإن اختلفت النوايا والمقاصد.

لقد اضطلعت وسائل الإعلام بدور مركزيّ في تحويل تنظيم داعش إلى غول يهدّد العالم بأسره، وقد احتلّ بذلك موقع المارد السوفياتي والغول الشيوعيّ، ولعلّ أهمّ دور لعبته هذه الآلة الإعلاميّة هي كونها حوّلت التنظيم من خلال عدستها المكبّرة إلى أكبر مشكل يواجه الشعوب الإسلاميّة منها والغربيّة، وأخفت بذلك كلّ أشكال العنف التي تبدو أكثر فتكًا بالبشر من مجرّد تنظيم شغل الإعلام وملأ شاشات التلفزيون، فسوء توزيع الملكيّة في العالم، أفضى إلى أزمات بطالة طالت المجتمعات الإنسانيّة، ولذلك فمن الوظائف التي أدّاها تضخيم أطروحة صدام الحضارات هو صرف النظر عن الصراع الحقيقي من أجل المصالح الاقتصاديّة والمنازل الاجتماعيّة، ففئة الشباب الذين تستقطبهم أحلام الجنان في الآخرة والحور العين، هم في الحقيقة ضحايا الجحيم الدنيوي الذي تسبّبت فيه السياسات الرأسماليّة في العالم وجراح الهويّة، وسقوط المنافس السوفياتي أنهى آخر فصول النقد والإصلاح التي طورت من التوحّش الرأسماليّ فبمجرّد انفراد الولايات المتحدة بقيادة العالم «لعبت العولمة المتوحّشة» لعبتها الدنيئة في كلّ ما جاءت به من قوانين داعية «لحريّة الشركات المتعدّدة الجنسيّات» في تقطيع أوصال الحدود الجمركيّة والتشريعات الحمائية الكفيلة بتحقيق ضمانات الصحّة والتعليم والعيش الكريم للطبقات الكادحة المستغلّة، تساندها أطراف الكومبرادور المحلّي في كلّ قطر، والعناصر الطفيليّة المنتعشة على حساب المنتجين، وإنتاج طبقة مافياويّة تحكم وتنهب باسم نصائح «خبراء البنك الدوليّ» والمؤسّسات الدوليّة الأخرى المعولمة، التي فتحت أبواب المضاربة بالعقارات والأسهم وحوّلت الأرياف إلى «مناطق استهلاكيّة» تفتح أفواهها وأيديها عاطلة عن العمل، بعدما ربطت اقتصاديات البلدان المحليّة، بالطغم الماليّة الإمبرياليّة، وصار المال المضارب حرًّا في النشاط، وصارت الأسواق تستورد منتجات إمبرياليّة، خارجيّة، حتّى بات المجتمع عرضة لعمليّة نهب شاملة.»[45]

45 ناصيف ياسين، الإرهاب الأمريكي المعولم، ط1، مصر، دار الفارابي، 2010، ص 333

وفي فلسطين صارت الحاجة ملحّة إلى سجلّ عنف يدوّن كلّ الجرائم التي ارتكبت في صبرا وشاتيلا وجنين وغزّة، لأنّ النسيان طواها مادامت الذاكرة مرتبطة بالتلفزيون، الذي نسي كلّ الجرائم الدوليّة في العراق وأفغانستان وفلسطين وشغل الناس وملأ الدنيا بداعش التي صارت أشبه بالمسلسل التلفزي المشوّق الذي ينتظر حلقته الأخيرة كما انتهى مسلسل القاعدة بإلقاء جثّة البطل في البحر، وما أزمة الذاكرة العربيّة سوى نتيجة لمرض الزهايمر الذي أصاب كلّ عشّاق التلفزيون، فصاروا لا يذكرون سوى آخر الصور المعروضة عليهم وينسون فصولاً دمويّة من الصراع العربيّ الفلسطينيّ، وتاريخًا دمويًا أباد فيه الأمريكيون السكّان الأصليّين من الهنود ولا يزالون يبيدون كل من يقف حجرة عثرة في طريق مصالحهم، وارتكبوا أبشع الانتهاكات لحقوق الإنسان في العراق. ولعلّ تلك الذاكرة لا يمكن أن تتحرّر من آفة النسيان إلاّ بقيام إعلام يواجه تيّارات العولمة الجارفة، فيداوي بالتي كانت هي الداء، ويستعمل سلاح الصّورة ليذكّر بفصول العنف، ويخرج من نمطيّة الأخبار التي تكرّرها القنوات كالببغاوات دون نقد أو تمحيص، فتصنع إرهابًا للعقول يفوق أثره إرهاب القتلة.

خاتمة:

قد يتزايد الخوف من تنظيم داعش على أرواح النّاس وسلمهم، وقد تتواصل عمليّات هذا التنظيم في مشرق الأرض ومغربها، لأنّ برنامج الفوضى الخلاّقة لا يزال غير مكتمل ومجالات تطبيقه يمكن أن تتّسع في دول الخليج العربي أو في بعض دول المغرب العربيّ كالجزائر مثلاً، وليس أيسر من اتخاذ ذرائع جديدة للتغييرات السياسيّة وتبريرها في ظلّ وجود أرضيّة خصبة لقيام انتفاضات شعبيّة باسم الديمقراطية أو العدالة الاجتماعيّة أو المساواة أو إحكام التصرّف في الموادّ الطاقيّة. وستكون تلك الانتفاضات بطبعها أرضيّةً لتمدّد الدولة الإسلاميّة التي بدأت تحشد قوّتها في ليبيا استعدادًا للتمدّد، فالدكتاتوريّة تمثّل بذرًا مخصبًا للأصوليّة، أمّا المقتنعون بالانتماء إلى هذه التنظيمات فهم دومًا مستعدّون للتضحية بأموالهم وأنفسهم «في سبيل الله» مادام الرّافد التراثيّ خزّانًا للعنف لا ينضب، ومادامت الأرضيّة النفسيّة مهيّأةً لقبول مثل هذا الخطاب، ومادام قدر حركات التجديد الدّيني أن تلقى التكفير والاتهام بالتآمر على الإسلام والتحالف مع المستعمر. وستتمدّد مثل هذه التنظيمات وإن تبدّلت أسماؤها مادام الغرب ذاته يُظهر ما لا يضمر ويتنكّر لمبادئ حقوق الإنسان كلّما تعلّقت المسائل بمصالحه، وهي تقتضي في بعض الأحيان إثارة الفوضى ودعمها بالسّلاح وإخراج حكّام من قصورهم كرها وتنصيب آخرين موالين لهم، والغرب يتظاهر بقصف معاقل التنظيمات الإرهابيّة بعد دعمها، يشتري منها النفط ويزوّدها بالأسلحة ثمّ يدّعي أنّه يبحث عن حلول لها، وأنّه ساع إلى القضاء عليها.

إنّ مسيرة اجتثاث الإرهاب في مفهومه الشامل[46] صعبة وشاقّة ولكنّها ليست مستحيلة، وسبيلها الأوّل في قيام نزعة إنسانيّة حقيقيّة تفوق سحر المصالح وسلطتها على الدّول وسعي جدّي إلى حلّ عادل لكثير من القضايا التي ملأت قلوب المسلمين حقدًا على الغرب، وعبأت طاقات الشباب المتحمّسين للعنف والقتال، ولعلّ من أهمّها إيجاد حلّ عادل للقضيّة الفلسطينيّة وفضّ النزاعات التاريخيّة بين الفرق الإسلاميّة على قاعدة التسامح ونبذ التعصّب والطّائفيّة ...

قد تبدو هذه الدّعوة طوباويّة في ظلّ تحكّم الطرف الإسرائيلي بخيوط اللعبة، وفي ظلّ قيام أنظمة تستعدي أنظمة أخرى على أساس ديني، ولكن من مصلحة الإنسانيّة جمعاء أن يقوم العدل، وأن تستعاد بعض حقوق الشعب الفلسطيني وأن يسود الرضا موقف الطرفين، ففي ذلك مصلحة مشتركة للإنسانيّة جمعاء، ودرء لخطر الإرهاب، لأنّه نشأ من رحم المأساة الفلسطينيّة تهجيرًا قسريًّا سنة 1948 ومجازر متكرّرة في حقّ شعب أعزل في أحداث صبرا وشاتيلا سنة 1982 التي ذهب ضحيتها أكثر من ثلاثة آلاف فلسطيني، وقصفًا جويًّا أباد البلاد والعباد في جنين سنة 2002 وفي غزّة سنة 2014 وقد ذهب أكثر من مليون قتيل نتيجة الغزو الأمريكي للعراق استنادًا إلى تقرير نشره مركز استطلاعات الرأي البريطاني (opinion research business)[47].

فلا يمكن للحريّة أن تتحقّق بمجرّد انتزاع دكتاتور أو وضع ورقة في صندوق لاختيار ممثّل في السلطة، فالحرّية أكبر من أن تختزل في تلك المظاهر الشكليّة، فهي عقليّة يثبّتها الفكر وتحصّنها المؤسسات وتنضجها قوّة الاقتصاد وتماسك المجتمع، فلا حريّة في واقع تشوبه الريبة والخوف، وتدفع فيه الشعوب دفعًا نحو المطالبة بحقوقها، ولا يمكن لشعب أن يتحرّر بأسلحة خارجيّة وترسانات عسكريّة، وإنّما بثورة ثقافيّة ووعي حقيقي بالحاجة إلى الحريّة.

46 لا يمكن أن نحصر مفهوم الإرهاب في الحركات الجهاديّة العنيفة، وإنّما هو مفهوم أوسع يحتاج إلى تحديد موضوعي وتعريفي جامع بين الممارسات الراهنة لسجلات التاريخ، فملف الإرهاب الأمريكي حافل بإبادة الهنود والحروب الخارجيّة في الفيتنام وأفغانستان والعراق، وغيرها من الاعتداءات الفاقدة للشرعيّة في مناطق كثيرة من العالم، والإمبراطوريات الاستعماريّة القديمة بدورها مارست الإرهاب على مستعمراتها، وإسرائيل تمارس إرهابًا على الفلسطينيين العزّل، والقوى الرأسماليّة تمارس إرهابًا على الدول الفقيرة والمتخلّفة ... والمفهوم أوسع من مجرّد حركات تظهر في مناطق محدودة ثم سرعان ما تختفي حين تفتقد الدعم وتذرها وسائل الإعلام دون تغطية وتضخيم.

47 https://www.iraqbodycount.org/analysis/beyond/exaggerated-orb/

قائمة المصادر والمراجع:

1- المصادر:

- ابن الأثير، الكامل، ط1، بيروت، دار إحياء التراث العربي، 1989
- ابن تيميّة، مجموعة الفتاوى، ط1، الإسكندريّة، دار الوفاء، 1995
- الشّافعي (سراج الدّين أبي حفص عمر بن عليّ بن أحمد الأنصاريّ)، التوضيح لشرح الجامع الصّحيح، ط1، قطر، دار الفلاح، 2008
- المقدسي (موفق الديّن عبد الله بن قدامة)، الكافي في فقه الإمام أحمد بن حنبل، ط1، بيروت، دار الكتب العلميّة، 1994
- الواقدي، المغازي، ج3، ط1، بيروت، عالم الكتب، 1984

2- المراجع:

- أبو نعمان (سلمان)، حول نموذج لاستعادة نهضة الأمّة، ط1، أسئلة دولة الربيع العربي، بيروت، مركز نماء للبحوث والدراسات، 2013
- إغناتكو (أ. أ.)، خلفاء بلا خلافة "التنظيمات الدينية السياسية المعارضة في الشرق الأوسط" تاريخ- أيديولوجيا- نشاطات، (ترجمة يوسف إبراهيم الجهماني)، ط1، دمشق، دار حوران للطباعة والنشر والتوزيع، 1997
- بايير (مايكل كولينز)، كهنة الحرب الكبار، (ترجمة عبد اللطيف أبو البصل)، ط1، السعوديّة، مكتبة العبيكان، 2006
- تشومسكي (نعوم)، ردع الديمقراطيّة، (ترجمة فاضل جتكر)، ط1، دمشق، دار كنعان للدراسات والنشر، 1993
- تشومسكي (نعوم)، طموحات إمبرياليّة، (ترجمة عمر الأيّوبي)، ط1، بيروت، دار الكتاب العربيّ، 2006
- حرب (علي)، المصالح والمصائر صناعة الحياة المشتركة، ط1، الجزائر/ بيروت، منشورات الاختلاف / الدار العربية للعلوم ناشرون، 2010
- حلاّق (وائل)، الدولة المستحيلة الإسلام والسياسة ومأزق الحداثة الأخلاقي، (ترجمة عمرو عثمان)، ط1، قطر، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2014
- حمود (عبد الحليم)، الإعلام التضليلي، دور الدعاية والإعلان الغربيّة في تشويه صورة الإسلام، ط1، لبنان، دار المؤلف، 2010
- رمضان (حسن محسن)، تشريح الفكر السلفي المتطرف، ط1، سوريا، دار الحصاد، 2009
- روبرت (جون)، حرب العصابات المقاومة بديلاً عن الحرب، (ترجمة إيهاب كمال محمّد)، ط1، القاهرة، الحريّة للنشر والتوزيع، 2006
- الزين (حسن محمد)، الربيع العربي آخر عمليات الشرق الأوسط الكبير، ط1، بيروت، دار القلم الجديد، 2013، ص 273
- عطوان (عبد الباري)، الدولة الإسلاميّة الجذور، التوحّش، المستقبل، ط1، بيروت، دار الساقي، 2015
- فرويد (سيقموند)، خمسة دروس في التحليل النفسيّ (تقديم وتعريب رضا بن رجب، عبد الرزّاق الحليوي)، ط1، تونس، دار المعرفة للنشر، (د ت).
- فوده (يسري)، في طريق الأذى من معاقل القاعدة إلى حواضن داعش، ط1، مصر، دار الشروق، 2015
- القحطاني (ريا حمدان)، الإسلاموفوبيا، جماعات الضغط الإسلاميّة في الولايات المتّحدة الأمريكيّة، ط1، مصر، العربي للنشر والتوزيع، 2011

- القرضاوي (يوسف)، فقه الجهاد، دراسة مقارنة لأحكامه وفلسفته في ضوء القرآن والسنّة، ط1، القاهرة، مكتبة وهبة، 2014
- كامل (مجدي)، الفوضى البنّاءة الدمار الخلّاق والثورات الملوّنة والشرق الأوسط الجديد الذي تريده أمريكا، ط1، دمشق/ القاهرة، دار الكتاب العربيّ، 2014
- كتاب جماعي، الإعلام وتشكيل الرأي العام وصناعة القيم، ط1، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربيّة، 2013.
- كين (ديفد)، حرب بلا نهاية، وظائف خفيّة للحرب على الإرهاب، (ترجمة معيم الإمام)، ط1، السعوديّة، مكتبة العبيكان، 2008
- ماكومز (ماكس)/ هولبرت (ر. لانس)/ كيوسيس (سبير)/ وانتا (واين)، الأخبار والرأي العام تأثير الإعلام على الحياة المدنيّة، (ترجمة محمد صفوت حسن، ط1، القاهرة/ الجزائر، دار الفجر للنشر والتوزيع/ الدار الجزائريّة للنشر والطبع والتوزيع، 2012
- المخادمي (عبد القادر رزيق)، مشروع الشرق الأوسط الجديد، ط1، الجزائر/ لبنان، ديوان المطبوعات الجامعيّة/ الدار العربيّة للعلوم، 2005
- ملف «تنظيم الدولة الإسلاميّة: النشأة، التأثير، المستقبل». مركز الجزيرة للدراسات، ط1، قطر، نوفمبر تشرين، 2014
- المنياوي(رمزي)، الفوضى الخلّاقة، السيناريو الأمريكي لتفتيت الشرق الأوسط والنظريّة الصهيونيّة التي تبنّتها أمريكا لشرذمته، ط1، دمشق/ القاهرة، دار الكتاب العربي، 2012
- وناس (المنصف)، الشخصيّة الليبيّة: ثالوث القبيلة والغنيمة والغلبة، ط1، تونس، الدار المتوسطية للنشر، 2014
- ياسين (ناصيف)، الإرهاب الأمريكي المعولم، ط1، مصر، دار الفارابي، 2010
- ياكوبتشي (مايكل أنجلو)، أعداء الحوار، أسباب اللاتسامح ومظاهره، (ترجمة عبد الفتاح حسن)، ط1، مصر، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، 2010

مواقع إلكترونيّة:

- https://www.iraqbodycount.org/analysis/beyond/exaggerated-orb/
- http://studies.aljazeera.net/ResourceGallery/media/Documents/2015/4/19/201541910294771734daeesh-file.pdf

MominounWithoutBorders

Mominoun

@ Mominoun_sm

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

الرباط – أكدال. المملكة المغربية

ص ب : 10569

الهاتف : 54 99 77 537 212+

الفاكس : 27 88 77 537 212+

info@mominoun.com

www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2016

All rights reserved © 2016